الفصل السادس

الخطابة والخطباء

١

ازدهار الخطابة

أسهمت عوامل كثيرة فى ازدهار الخطابة لعصر بنى أمية ، إذ كانت لا تزال للعرب سلائقهم اللغوية ولم تفسد ألسنتهم بمجاورة الأمم الأجنبية والاختلاط بشعوبها ، وكانوا من بلاغة المنطق وحسن البيان وجودة الإفصاح والإفهام بحيث يستطيع متكلمهم أن يبلغ ما يريد من استمالة الأسماع مع الديباجة الرائعة والرونق البديع .

وقد وقف الجاحظ طويلاً فى كتابه البيان والتبيين يُشيد بقدرتهم الخطابية ، وبلغ من إشادته بهذه القدرة أن رفعهم فى الخطابة على جميع الأمم ، حتى الفرس واليونان ، وهو محق فى تقديمه لهم على الفرس ، أما اليونان فمن المعروف أن الخطابة بأنواعها السياسية والقضائية والحفلية نشطت عندهم نشاطاً واسعاً ، وأنه اشتهر بينهم غير خطيب مثل ديموستين ، وتُوِّج هذا النشاط بكتاب الخطابة لأرسطاليس . ويظهر أن الجاحظ لم يكن يعرف شيئاً من ذلك ، ومن ثم مضى يقدم الفرس على اليونان فى الخطابة ، ومما لا شك فيه أنهم يتخلَّفون عنهم وعن العرب جميعاً فى مضمار هذا الفن من فنون النثر القولى .

وعواملُ مختلفة هيأت للخطابة العربية أن تبلغ فى هذا العصر كل ما كان يُنْتَظر لها من نشاط وازدهار ، بالإضافة إلى ما ذكرناه من مواهبهم البيانية ، ومن الممكن أن نردها إلى السياسة والمحافل والدين ، فأما من حيث السياسة فإن هذا العصر امتاز بظهور معارضة حادة فيه للدولة الأموية ، وهى معارضة كانت تدور كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع على الخلافة وهل تُقْصَرُ على بنى أمية أو

تكون حقًّا شائعاً للمسلمين جميعاً ، أو تُرَدّ إلى بنى هاشم وأبناء على خاصة ، أو تكون حقًّا للعرب ، فلا تختص بها قريش .

وكان الأمويون وولاتهم من مثل زياد والحجاج لا يزالون يقرّرون أنها حق لهم وأن الله اصطفاهم ليقودوا العرب والمسلمين ويحكموهم بشريعته . وانبرى لهم الخوارج يصيحون منذ خروجهم على على بن أبى طالب بأن الخلافة حق عام للمسلمين ، يتولاّها خيرهم زهداً وتقوى وورعاً ، ولو كان غير قرشى ، بل لو كان غير عربى . ومضوا يحاجُّون فى أول الأمر عليًّا وابن عباس ، ثم أخذوا يحاجون ابن الزبير ، واختلفوا فيما بينهم وانقسموا فرقاً وطرائق قِدَداً ، فكان منهم الأزارقة والنَّجدات والصُّفْرية والإباضية ، وأخذ كل فريق يحتج لرأيه مستعيناً بدقة مداخله فى حجته .

ومنذ قيام على بالكوفة ظهرت من حوله جماعة ترى أنه هو وأبناءه أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة . ويتوفّى على ، فيدعون للحسن ، ويخيب ظنهم فيه حين يتنازل عن الخلافة لمعاوية . ولا تهدأ ثائرتهم ، فيطلبهم زياد بن أبيه ، وقصته مع حُجْر بن عدى مشهورة . ويتوفّى معاوية ، فتكتب شيعة الكوفة إلى الحسين ، ويتجه إليهم ، ولكنه يُقْتَلُ بكَرْبلاء دون غايته . ويتوفّى يزيد ابن معاوية ، فتنشب حركة التوابين ، يقودها سليمان بن صُرَد ، وتبوء بالخذلان . حينئذ يتولى قيادة الشيعة هناك المختار الثقفى ، وما يزال يخطب ويدعو حتى يجتمع عليه خلق كثير ، ويتجرد له مصعب بن الزبير . فيَقْضى عليه قضاء مبرماً . ونمضى إلى القرن الثانى فيظهر زيد بن على بن الحسين ، ويثور ، وسرعان ما يُقْضَى عليه .

ويتكون فى هذه الأثناء حزب عبد الله بن الزبير ، ويظل نحو ثمانى سنوات ، وكان هذا الحزب يدعو إلى عودة الخلافة إلى الحجاز وأن يتولاها أحد أبناء كبار الصحابة من قريش ، لا هؤلاء الأمويون الذين حولوا الخلافة إلى دمشق وأخذوا هناك يحكمون الناس مستندين إلى القبائل اليمنية الشامية . وبذلك ضاع الحكم من قريش ومن الحجاز جميعاً .

وكان كثير من سادة العرب وأسرها النبيلة يرى أن الخلافة ينبغى أن لا تُقْصَر على قريش وأن تُرَدَّ إلى العرب قاطبة ، وبلغ هذا الشعور قمته فى الكوفة ، فانبرى عبد الرحمن بن الأشعث الكِنْدى يعبر عنه فى ثورته على الحجاج ؛ تؤيده بلدته ، ولكن ثورته باءت بالفشل . ولا نصل إلى أوائل القرن الثانى حتى يثور نفس الثورة يزيد بن المهلب ، وتدور عليه الدوائر .

ودائماً تلقانا فى صفوف هذه المعارضة خطابة كثيرة ، إذ يمتشق الخطباء ألسنتهم فى تصوير مذاهبهم السياسية . يدعون لها ، كما يدعون للانتقاض على بنى أمية . وكان يلقاهم أنصار الأمويين بخطابة ملتهبة ، يصورون فيها خروجهم على الجماعة وشَغَبهم وأنهم يَضِلون الطريق . وكل ذلك هيأ فى قوة لنشاط الخطابة السياسية . ومن الممكن أن نضيف إلى هذا الجانب خطابة القواد فى الجيوش الغازية شرقاً وغرباً ، إذ قلما احتدمت معركة إلا احتدم معها الشعر والخطابة . ومن الممكن أيضاً أن نضيف ما احتدم بين القبائل من خصومات قبلية جعلتهم يقتتلون كما جعلتهم يخطبون متوعدين منذرين على نحو ما مرَّ بنا فى خصومات قيس من جهة وتغلب والقبائل اليمنية من جهة ثانية سواء فى الشام أو فى الجزيرة ، وكذلك خصومات تميم والأزد فى البصرة ، وما اندلع من ألسنة هذه الخصومات جميعاً فى خراسان . وهى — كما قدمنا — خصومات كانت تختلط فيها العصبيات القبلية بالسياسة وموقف القبائل من بنى أمية ونُصرتهم لهم أو انفضاضهم عنهم .

وإذا تركنا السياسة وأحزابها وأحداثها إلى المحافل ووفودها وجدنا لذلك آثاراً قديمة منذ الجاهلية ، وقد أخذت هذه الوفود تكثر منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . وخاصة بعد فتح مكة . ولما فُتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار واستبحرتْ الدولة واتسعت كان يقدم على الخلفاء الراشدين من ينبئونهم بالفتح ، ومن يذكرون لهم حاجة قومهم فى المصر الجديد . وندخل فى عصر بنى أمية ، فتتحول هذه الوفود إلى سيول ، تَقْصد قصور الخلفاء وقصور الولاة ، متحدثة فى شئون قومها . واشتهر معاوية باستقدامه الوفودَ من الأمصار حين تَعِن له فكرة سياسية كفكرة تولية ابنه يزيد الخلافة من بعده . وكانت هذه الوفود تنوب عن أقوامها

فى بيعة الخليفة الجديد وفى بثّ شكواها حين يلمّ بها مايوجب الشكوى. وانبثقت فى هذه الأثناء خطب التهنئة والتعزية . وكانوا يُسمَّون محافل هذه الوفود باسم المقامات . وفى العادة كان ينوب عن القوم فى هذه المقامات سيدهم الذى يصدرون عن رأيه . ويتصادف فى بعض الأحيان أن تجتمع وفود مختلفة ، حينئذ يتبارى خطباؤها ، ويحاول كل منهم أن يكون له قَصَبُ السبق فى البيان والفصاحة .

وبجانب المحافل والسياسة دفع الإسلامُ إلى نشاط واسع فى الخطابة ، إذ جعلها جزءاً لا يتجزأ من صلاة الجمعة والعيدين ، فأيّان ركَزَ الإسلام أعلامه انتصبت المنابر فى المساجد كى يعظ الخطباء الناس بالمواعظ الحسنة . يُسْهم فى ذلك الخلفاء والولاة ، وجمهور كبير من الخطباء . ولم تلبث جماعة أن عاشت حياتها تعظ الناس مستلهمة هدى القرآن الكريم وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكثر أفراد هذه الجماعة فى كل مصرٍ ، وكثر بجانبهم جماعة من القصّاص ، كانوا يقصون على الناس مازجين قصصهم بتفسير آى الذكر الحكيم وبكثير من مخلّفات أهل الكتب السماوية وتراثهم الدينى . وكانوا يسهبون الناس بما يوردون عليهم من أخبار عجيبة ، وكان نفر منهم يتزيد فى هذه الأخبار تزيداً شديداً ، مما جعل كثيرين من زهاد الأمة ونساكها ينفرون منهم ، وخاصة حين رأوا معاوية وخلفـاءه يستغلون بعضهم للدعوة لهم والإزراء على خصومهم[1] ، فارضين لهم رواتب ومكافآت شهرية[2] . ولعل من الطريف أن هؤلاء القصاص كانوا ينبثّون فى الجيوش لتحميس الجند على القتال ، كما كان ينبث معهم جماعة من الوعاظ ، وفى الطبرى نصوص تدل على ذلك كثيرة ، إذ نجد عتّاب بن ورْقاء حين نازل شبيباً الخارجى يقصُّ على جنده محمساً لهم[3] كما نجد قتيبة بن مسلم فى خراسان يسأل عن واعظ جنده محمد بن واسع الأزدى الناسك المشهور[4] . ولم يكن ذلك قاصراً على جيوش الدولة ، فقد كان الخوارج يذهبون نفس المذهب ، ومن كبار قُصّاصهم صالح بن مسرّح الصُّفْرىّ ،

---

(١) انظر حاشية الولاة والقضاة للكندى ص ٣٠٤ وخطط المقريزى (طبعة بولاق) ٢/٢٥٣ .

(٢) الولاة والقضاة ص ٣١٧ .

(٣) طبرى ٥/٨٩ .

(٤) البيان والتبيين ٣/٢٧٣ .

وفى الطبرى طرف من قصصه[١] ، وكذلك كان يصنع أصحاب الثورات على نحو ما نعرف عن جهم بن صفوان وصنيعه فى فتنة الحارث بن سريج بخراسان[٢] .

وفى هذه البيئة الدينية ، بيئة الوعظ والقصص ، أخذ يتضح رقّ العقل العربى بما أصاب من كنوز الثقافات الأجنبية ، فإذا جدل كثير ينشب فى مسائل العقيدة ، كمسألة ارتباط الإيمان بالعمل ، وهل يُعَدّ المسلم مؤمناً وإن لم يؤدّ الفروض الدينية ؛ ومثل مسألة حرية الإرادة وهل الإنسان مخيَّر فى الحياة أو مسيَّر لا حول له ولا قوة . ومثل مسألة صفات الله ، هل هى عين الذات الإلهية أو غيرها ، وسرعان ما تكونت فرق الجَبْرية والمرجئة والقدرية والمعتزلة ، مما عرضنا له فى غير هذا الموضع .

والمهم أن هذه الفرق تجادلت جدالاً طويلاً فى هذه المسائل العقيدية وهو جدال رشّح لقيام مناظرات عنيفة بينها ، وهى مناظرات حشدوا لها كل ما يمكن من أدلة نقلية عن الكتاب والسنة وأدلة عقلية مدارها على البرهان المنطقى . ولم تكن هذه الفرق تتجادل فيما بينها فحسب ، بل كانت تُجادل أيضاً طوائف من أصحاب الديانات السماوية وغير السماوية ، وكانوا يرونهم فى جدالهم يستعينون بالمنطق اليونانى وبشعب مختلفة من الفلسفة والثقافات الأجنبية ، فطلبوا الوقوف على ذلك كله . وهم من هذه الناحية يُعَدُّون أسبق الطوائف العربية فى معرفة شئون الفكر الأجنبى ودقائق احتجاجاته .

وعلى هذا النحو انبثق علم الكلام فى عصر بنى أمية ، وانبثقت معه صور خطابية جدلية هى صور المناظرة والمحاورة ، وهى صور جديدة ضُمَّت إلى صور الخطابة السياسية والحفلية والدينية ، صور كانت تسعى إلى نقض أدلة الخصوم وبيان أنهم مخدوعون فيما يذهبون إليه من آراء . وكان الناس يجتمعون من حول أصحاب هذه الصور فى حلقات ، يقف فيها المناظر ومعه أصحابه ، فيعلن رأيه ويدعمه بكل دليل ، ويتقدم خصمه بين أنصاره فيحاول أن يحطم له كل دليل قدّمه ، وأن يثبت رأيه هو بما يجمع له من براهين . وسنرى مدى ما كان لهذه المناظرات من أثر فى رقى الخطابة رقيّاً بعيداً .

---

(١) طبرى ٥/٥٠ .

(٢) طبرى ٦/٣ وما بعدها .

٢

خطباء السياسة

تمت الخطابة السياسية فى هذا العصر ونهضت نهوضاً عظيما ، إذ دارت على كل لسان مؤيد أو معارض للدولة ، فأيان وليت وجهك فى السلم والحرب وجدت الخطباء متراصّين فى صفوف متلاحقة يخطبون الناس محاولين أن يستميلوهم إلى آرائهم داحضين بكل ما وسعهم آراء خصومهم . وتموج كتب الأدب والتاريخ بما نثروه من خطبهم وأقوالهم وارجعْ إلى الطبرى فستراه لا يعرض عليك أى رأى دون أن يشفعه غالباً بما خطَب به صاحبه وأورد من حجج تؤيده ، وكثيراً ما يناقضه خصومه مظهرين ما فى رأيه من تمويه .

وليس هناك حزب ولا ثورة كبيرة أو صغيرة إلا وخطباء كثيرون ينبرون للترويج لهذا الحزب ، أو تلك الثورة ، فللخوارج خطباؤهم ، وكذلك للشيعة وللزبيريين ولابن الأشعث وغيره من الثوار . وكان يقابل هؤلاء الخطباء المعارضين للدولة خطباء كثيرون يؤيدون بنى أمية من ذات أنفسهم أو من ولائهم وقوادهم . وهناك فى أطراف الدولة شرقاً وغرباً خطباء منوهون يستحثون الجيوش على الجهاد فى سبيل الله والتنكيل بأعدائهم تنكيلا شديدا . وبذلك انتشرت الخطابة السياسية فى كل مكان وعلى كل لسان .

ولعل حزباً لم يكثر خطباؤه كما كثروا فى الخوارج ، إذ كانوا شديدى الحماسة لعقيدتهم ، ولم يدّعوا لها سرّاً كما دعا الشيعة فى أكثر الأمر ، بل دعوا لها جهاراً ، شاهرين سيوفهم فى وجوه بنى أمية وولائهم . على أنه ينبغى أن نلاحظ أن جمهور خطبهم سقط من يد الزمن ولم يصلنا ، لأن الناس من غير بيئتهم كانوا يتحرجون من روايتها ، إذ كانوا يرون فيهم ثواراً خارجين على الجماعة ، ويظهر أنهم أنفسهم لم يحرصوا على تسجيلها وروايتها . ومع ذلك فقد بقيت منها بقية احتفظت بها كتب الأدب والتاريخ . وأيضاً فإنها احتفظت ، وخاصة كتاب البيان والتبيين ، بأسمائهم[1] .

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٤٣ وما بعدها و ٢/٣٦٤ وما بعدها .

وأول من يلقانا من خطبائهم حيّان بن ظُبْيان السُّلمى والمستورد بن عُلَّفة لعهد المغيرة بن شعبة فى ولايته على الكوفة لمعاوية . ولا نلبث أن نلتقى بنافع ابن الأزرق وطائفة من زعمائهم لدى عبد الله بن الزبير يناظرونه حتى إذا لم يجدوه على رأيهم انصرفوا عنه إلى البصرة ، وهناك انقسموا — على نحو ما مرّ بنا — إلى أزارقة ونَجدات وصُفْرِيَّة وإباضية ، وأسرع الأزارقة فأعلنوا ثورتهم وشهروا سيوفهم فى وجوه ولاة ابن الزبير ثم من خلفوهم من ولاة بنى أمية ، وتصدّى لهم المهلب ابن أبى صُفْرة وقواد آخرون ، ومزّقوهم شر ممزّق .

وقد ظلت نيران هذه الحروب مع الأزارقة مستعرة نحو خمسة عشر عاماً كانت تحتدم فيها المعارك الحربية واللسانية من الشعر والخطابة ، ومن أهم خطبائهم نافع بن الأزرق والزبير بن على الذى وليهم بعد نافع وابن الماحوز ، وله خطب مختلفة يحرضهم فيها على القتال والاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب . ونلقانا فى خطابتهم نفس الروح التى وصفناها فى أشعارهم ، إذ نراهم يدعون للترامى على الموت ترامى الفراش على النار غير آبهين بالحياة الدنيا ، إنها حياة زائفة ، وهم يريدون الحياة الخالدة فى الدار الآخرة . وهم إنما يحاربون فى سبيل الحق ، يحاربون تلك الفئة التى ضلت فى رأيهم ، وكل منهم يلتمس الشهادة ، يقول الزبير فى بعض خطبه[1] : « إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجْر ، وهو على الكافرين عقوبة وخِزْىٌ . وثقوا بأنكم المستخلَفون فى الأرض والعاقبة للمتقين » .

فهم فى رأيه الفئة المحقة وخصومهم الفئة المبطلة . وهم المؤمنون حقًّا وغيرهم الكافرون . وقتلاهم فى الجنة أما قتلى غيرهم ففى النار . وهم لذلك يطلبون الاستشهاد ، بل يطلبون العَجلة إليه ، حتى يتخلصوا من الدنيا ومتعها الزائلة ، وكأنما يرون فى الموت نفسه ضرباً من الغلبة على خصومهم الذين غَلبوا على الدنيا ، ولا يريدون أن يغلبوهم أيضاً على الآخرة .

وإذا كنا لاحظنا فى شعرهم تنفيراً من الدنيا ، حتى ليتحول فى بعض جوانبه إلى موعظة خالصة فكذلك الشأن فى خطبهم . على نحو ما يلقانا فى خطبة قَطَرِىّ ابن الفُجاءة قائدهم بعد الزبير بن على ، وهو يستهلها على هذا النمط[2] :

---

(١) الكامل للمبرد ص ٦٤٠ . ٢/٢٥٠ والعقد الفريد ٤/١٤١ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٢٦ وعيون الأخبار

« أما بعد فإنى أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة[١]، حفت بالشهوات... مع أن امرأ لم يكن منها فى حبرة[٢]، إلا أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق من سرائها بطناً، إلا منحته من ضرائها ظهراً، ولم تطلله غبية[٣] رخاء، إلا هطلت عليه مزنة[٤] بلاء، وحرى إذا أصبحت له منتصرة أن تمسى له خاذلة متنكرة، وإن جانب منها اعذوذب واحلولى[٥] أمر عليه منها جانب وأوبى[٦]، وإن آتت امرءاً من غضارتها[٧] ورفاهتها نعماً أرهقته من نوائبها نقماً، ولم يمس امرؤ منها فى جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم[٨] خوف، غرارة غرور ما فيها، فانية، فان من عليها، لا خير فى شىء من زادها إلا التقوى ».

وتمضى الخطبة وهى طويلة على هذا النحو من الوعظ والترغيب والترهيب، وواضح ما فيها من جمال اللفظ وروعة أسره. وقد اختار لها قطرى السجع حتى يؤثر فى نفوس سامعيه أقوى تأثير، ولم يكتف بالسجع، بل أضاف إليه التصوير، كما أضاف الطباق، حتى يبلغ كل ما يريد من تنميق معانيه. وممن اشتهر من خطباء الأزارقة عبيدة بن هلال اليشكرى وزيد بن جندب الإيادى وعبد ربّ الصغير.

ويلقانا بين خطباء الصفرية عمران بن حطان وصالح بن مسرح الذى كان يعظهم ويقص فيهم قصصا كثيراً وكان فى وعظه وقصصه يحمل على بنى أمية ومن معهم من الجماعة الإسلامية حملات شعواء، حتى إذا بلغ من إثارة أصحابه فى الجزيرة والموصل ما أراد خرج على الحجاج. وقتل، فخلفه شبيب الذى دوّخ جيوش الحجاج طويلا، ومن قول صالح فى بعض مواعظه[٩]:

« أوصيكم بتقوى الله والزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة وكثرة ذكر الموت. وفراق الفاسقين وحب المؤمنين، فإن الزهادة فى الدنيا ترغب العبد فيما عند الله وتفرغ بدنه لطاعة الله، وإن كثرة ذكر الموت تخيف العبد من ربه، حتى

---

(١) خضرة: ناضرة.
(٢) حبرة: سرور.
(٣) الطل: المطر القليل. الغبية: المطرة القليلة.
(٤) الهطل: المطر الكثير. المزنة: السحابة الممطرة.
(٥) احلولى: صار حلواً.
(٦) أوبى: من الوباء.
(٧) الغضارة: النضارة والخصب.
(٨) القوادم: الريش فى مقدم جناح الطائر.
(٩) تاريخ الطبرى ٥/٥٠.

يجأر[١] إليه ويستكين له ، وإن فراق الفاسقين حق على المؤمنين . قال الله فى كتابه : (ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً ولا تَقُمْ على قبْره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وإن حبَّ المؤمنين للسَّبَبُ الذى يُنال به كرامة الله ورحمته ، جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين » .

ومضى على هذه الشاكلة يعظ من حوله من الصُّفْرية ويحرضهم على قتال بنى أمية أئمة الضلال الظَّلَمة كما يقول ، حاثًّا لهم أن يلحقوا بإخوانهم المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ابتغاء رضوان الله . وممن اشتهر بين الصُّفْرية بالخطابة الطِّرمّاح بن حكيم وشُبَيْل بن عَزْرة الضُّبَعى والضحاك بن قيس الذى خرج لعهد مروان بن محمد وغلب على العراق فترة من الوقت .

ولم تحدثنا كتب الأدب والتاريخ عن خطباء النَّجدات ، أما الإباضية فقد اشتهر من بينهم بالخطابة عبد الله بن يحيى الكندى الملقب بطالب الحق ، وقد دعا إلى الثورة على الأمويين فى سنة ١٢٩ واستطاع أن يستولى على حضرموت واليمن ، واتجهت جيوشه بقيادة أبى حمزة قائده إلى الحجاز فاستولت عليه . ولم تلبث جيوش مروان بن محمد أن ردّت الأمر إلى نصابه . ولأبى حمزة خطب مأثورة تدل دلالة بينة على أنه كان من راضة الكلام ، وربما كان أروع خطبه كلمته التى ألقاها فى مكة ، ويقال بل ألقاها فى المدينة[٢] ، وهو يستهلها بالثناء على أبى بكر وعمر ولا يلبث أن يطعن فى عثمان ومن جاء بعده من خلفاء بنى أمية ، مصوراً تعطيلهم لحدود الله وأحكامه وأخذهم للرعية بالبطش والظلم ، منددأ بمن اشتهروا منهم باللهو والمجون مثل يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك . وينتقل إلى تصوير الخوارج وإخلاصهم لعقيدتهم وتقواهم وزهدهم فى الدنيا وجهادهم فى سبيل الله مستعذبين للاستشهاد إذ يرون فيه الحياة كل الحياة ، الحياة الباقية التى لا تَفْنَى ، يقول متحدثاً عن شبابهم :

« شبابٌ والله مكتهلون[٣] فى شبابهم غضيضةٌ عن الشرّ أعينهم ، ثقيلةٌ عن

---

(١) يجأر : يضرع ويستغيث .

(٢) انظر البيان والتبيين ٢/١٢٢ وعيون الأخبار ٢/٢٤٩ والعقد الفريد ٤/١٤٤ والأغانى ٢٠/١٠٤ .

(٣) مكتهلون : يريد أن لهم رزانة الكهول .

الباطل أرجلهم ، أنضاء[١] عبادة وأطلاح[٢] سهر ، ينظر الله إليهم فى جوف الليل ، منحنيةً أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مرَّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مرَّ بآية من ذكر النار شهق شهقةً كأنَّ زفير جهنم بين أذنيه . موصولٌ كلالهم[٣] بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار . . حتى إذا رأوا السِّهام قد فُوِّقت[٤] والرماح قد أُشرِعت[٥] والسيوف قد انتُضيت[٦] ، ورَعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفّوا بوعيد الكتيبة لوعْد الله ، ومضى الشباب منهم قُدُماً ، حتى اختلفتْ رجلاه على عنق فرسه ، وتخضَّبتْ بالدماء محاسن وجهه . فأسرعتْ إليه سباع الأرض ، وانحطت عليه طير السماء . فكم من عينٍ فى منقار طائرٍ طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كفٍّ زالتْ عن مِعْصَمِها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله » .

وهى صورة رائعة لشباب الخوارج أحكم أبو حمزة إخراجها فى ألفاظ طلية تستميل القلوب بعذوبتها ، ومعان تحيط بكل ما أراد من تمثيل تقوى الخوارج وإيثارهم لما عند الله من النعيم ، وتمثيل اندفاعهم على حياض الموت كلٌّ يودّ أن يكون السابق إلى دار الخلود وأن يموت قَعْصاً بالرماح ، وأن تنوشه سباع الحيوان والطير ، حتى يستحقّ رضوان ربه .

وعلى نحو ما كان للخوارج خطباؤهم كان للشيعة خطباء كثيرون ، وكانوا على شاكلة خطباء الخوارج يندّدون دائماً ببنى أمية ، وأنهم اغتصبوا الخلافة ، وساروا فيها سيرة جائرة عطّلوا فيها أحكام الشريعة وما رسمه القرآن ورسوله الكريم . وكانوا لا يزالون يردّدون أن أبناء على هم أصحاب الخلافة الشرعيون بغى عليهم بنو أمية إذ انتزعوا منهم ميراثهم عن الرسول الكريم . وتدور هذه الأفكار دائماً فى خطابتهم وخطابة أئمتهم ، على نحو ما نجد عند الحسين حين اقترب من الكوفة واجتمع

---

(١) أنضاء : مهزولون .
(٢) أطلاح : مكدودون .
(٣) الكلال : التعب والإعياء .
(٤) فوق السهم : جعل له فوقاً وهو موضع الوتر من السهم يصنع به ذلك إذا أعد للرمى .
(٥) أشرعت : سددت .
(٦) انتضيت : استلت .

الناس من حوله ولقيته مقدمات الجيش الذى أرسله له عبيد الله بن زياد ، فقد انصرف إلى القوم بوجهه ، يقول فى كلمة له[١] .

« أما بعد أيها الناس فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله . ونحن — أهلَ البيت — أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجَوْر والعدوان » .

وتتطور الأمور ويُقْتَلُ الحسين ، ويتخذ الشيعة من مقتله دليلاً واضحاً على ظلم بنى أمية وأنهم يسوسون الأمة سياسة جائرة ، فقد استباحوا دم حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم . ويتوفّى يزيد بن معاوية فيتجمع كثير من شيعة الكوفة بقيادة سليمان بن صُرَد ، فيعلنون توبتهم من السكوت عن الثأر للحسين وما كان من القعود عن نصرته . ويخطب سليمان وكثيرون غيره محرضين على الثورة ، وهم فى تضاعيف ذلك يقررون حق آل البيت فى الخلافة لقرابتهم من الرسول مستثيرين الناسَ على الأمويين لما سفكوا من دم الحسين الطاهر ابن بنت الرسول . من ذلك قول سليمان بن صُرَد فى إحدى خطبه[٢] :

« قُتل فينا ولدينا ولدُ نبينا وسلالته وعصارته وبَضْعة[٣] من لحمه ودمه . . اتخذه الفاسقون غرضاً للنَّبْل . . ألا انهضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل[٤] والأبناء حتى يَرْضى الله . والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا مَنْ قتله أو تَبيروا[٥] » .

وكان من زعماء التوابين معه عبيد الله بن عبدالله المُرِّى ، وكان خطيباً لا يبارَى . فمضى يعظ الناس ويحرّضهم على الانتقاض على الأمويين بمثل قوله[٦] :

« هل خلق ربكم فى الأولين والآخرين أعظم حقّاً على هذه الأمة من نبيّها ؟ وهل ذُرِّية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقّاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ، ألم تروا ويبلغكم ما اجتُرم[٧] إلى ابن بنت نبيكم . . وترميلهم[٨] إياه بالدم وتجرارهموه على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم

---

(١) طبرى ٤/٣٠٣ .
(٢) طبرى ٤/٤٢٨ .
(٣) بضعة : قطعة .
(٤) الحلائل : جمع حليلة ، وهى الزوجة .
(٥) تبيروا : تهلكوا .
(٦) طبرى ٤/٤٣٣ .
(٧) اجترم : اقترف وارتكب .
(٨) ترميلهم : من رمله إذا لطمه بالدم .

ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم . . ابن أول المسلمين إسلاماً وابن بنت رسول ربِّ العالمين ، قتله عدوه وخذله وليّه ، فويل للقاتل وملامة للخاذل .. إلا أن يناصح لله فى التوبة ، فيجاهد القاتلين . . وعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويُقيل العَثْرة .. إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته وإلى جهاد المُحِلِّين والمارقين » .

وخرج التوابون من الكوفة إلى الشمال فالتقوا بجيش أموى نكّل بهم وفرق جموعهم ، فارتدوا إلى الكوفة ، وهناك تلقّاهم المختار الثقفى ، زاعماً أن ابن الحنفية — على الرغم من تبرئه منه — بعثه على الشيعة أميراً وأمره بقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته . وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقى لفرقة الكَيْسانية المشهورة فى تاريخ الشيعة ؛ وقد مرَّ بنا تصوير عقيدتها ومدى ماذهبت إليه من غلو وإسراف ، وكيف أنها كانت تدعو لابن الحنفية محمد بن على ، وتعده وصيّه والإمام المهدى المنتظر . وكان المختار خارجيّاً ثم صار زبيريّاً ثم صار كيسانيّاً [1] وكان لسنا فصيحاً ، من أهل الدهاء ، فجمع الشيعة حوله . ووجههم بقيادة إبراهيم بن الأشتر لحرب أهل الشام فالتقوا بهم فى « خازر » وعصفوا بهم عصفاً . ولم يلبث مصعب بن الزبير والى البصرة لأخيه عبد الله أن قضى عليه بعد معارك طاحنة . وكانت فى المختار شعوذة كثيرة ، جعلته يتأثر فى خطابته كهنة الجاهلية ، حتى كان يزعم — على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، أنه يُوحَى إليه ، مصوِّراً هذا الوحى فى فقرات من السجع يوشّيها بالأيمان واللفظ الغريب على شاكلة قوله [2] :

« أما وربِّ البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه [3] والقفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفَيْن الأخيار ، لأقتلنّ كل جبّار ، بكل لَدْن خطّار [4] ، ومهنّد بتّار [5] ، فى جموع من الأنصار ، ليسوا بميل أغمار [6] ، ولا بعُزْل [7] أشرار ، حتى إذا أقمتُ عمود الدين ورأبْتُ شَعْب [8] صَدْع المسلمين ، وشفيت

---

(١) الملل والنحل ص ١٠٩ .
(٢) طبرى ٤/٤٥٠ .
(٣) المهامه : الفيافى .
(٤) اللدن : الرمح . الخطار : الضارب .
(٥) المهند : السيف ، البتار : القاطع .
(٦) الميل : جمع أميل وهو الجبان ، الأغمار : جمع غمر وهو ناقص التجربة .
(٧) العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه .
(٨) رأب : أصلح . الشعب : الفتق والصدع .

غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين ، لم يكبر علىَّ زوالُ الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى » .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت لنا المعانى التى كان يردِّدها خطباء الشيعة ، وهى معان تُرَدُّ إلى بيان حقوق آل البيت فى الخلافة ، وأن على المسلمين أن ينصروهم ، وأن يأخذوا بثأر مَنْ قتله الأمويون منهم . وفى تضاعيف ذلك يحمل خطباؤهم على بنى أمية حملات عنيفة مصورين ظلمهم ونقضهم لأحكام الكتاب والسنة . ومن أعلام الخطابة الشيعية زيد بن على وابنه يحيى ، وإن كانت كتب الأدب والتاريخ الوثيقة لم تحتفظ بشىء من خطابتهما ، وكذلك هى لم تحتفظ بشىء من خطابة بنى صَوْحان : صَعْصعة وزيد وسَيْحان وكانوا شيعة وفى الذروة من البيان والفصاحة . وقد احتفظ ابن أبى الحديد بكثير من المخاصمات والمحاورات بين الحسن بن على وعمرو بن العاص وبعض بنى أمية ، وهى مخاصمات يغلب عليها الانتحال ، ومثلها المخاصمات التى دارت بين ابن عباس ومعاوية وبعض أصحابه مما احتفظ به ابن أبى الحديد والعقد الفريد والمسعودى .

ولم يعش حزب الزبيريين طويلا ، ولذلك لم يتكاثر خطباؤه ، وعبد الله ابن الزبير خطيب هذا الحزب ، وكان مفوهاً بليغاً يعرف كيف يخلب الألباب بكلامه ، ويستولى على النفوس بحلاوة منطقه ، وهو فى خطابته يتناول الأمويين بالقَدْح والتجريح ، وقد استغل مقتلهم للحسين ليبين غدرهم وما يتورطون فيه من آثام . وله مناظرة مع الخوارج تدل على قوة منطقه وحدة ذكائه[1] ، وأيضاً له خطبة مشهورة خطبها حين جاءه نعى أخيه مصعب واستيلاء عبد الملك بن مروان على العراق ، وهى تصور رباطة جأشه وصدق يقينه ، وفيها يقول[2] :

« إن يُقْتَلْ فقد قُتل أبوه وعمه وابن عمه[3] ، وكانوا الخيارَ الصالحين ، إنا والله لانموت حَتْفَ أنوفنا[4] ، ولكن قَعْصاً[5] بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف ،

---

(١) طبرى ٤/٤٣٧ وما بعدها

(٢) العقد الفريد ٤/٤١٢ وعيون الأخبار ٢/٤٢٠ .

(٣) أبوه الزبير قتل عقب موقعة الجمل وعمه عبد الرحمن بن العوام قتل يوم اليرموك وابنه عبد الله قتل يوم الدار . انظر أسد الغابة ٣/٢١٣ .

(٤) يقال مات حتف أنفه إذا مات على الفراش.

(٥) قعصاً : موتاً سريعاً .

وليس كما يموت بنو مروان، والله ما قُتل منهم رجل فى زحف فى جاهلية ولا إسلام قط . ألا وإنما الدنيا عاريَة من الملك القهار الذى لا يزول سلطانه ، ولا يبيد ملكه ، فإن تُقْبل الدنيا علىّ لم آخذها أخذ الأشِر[1] البَطِر ، وإن تُدْبر عنى لم أبك عليها بكاء الخَرِق المهين[2] » .

ولأخيه مصعب خطب مدونة ، وقد جعل إحداها آيات قرآنية خالصة[3] ، ولأمهما أسماء مع ابنها عبد الله محاورة[4] طريفة حين حاصره الحجاج فى مكة وتخاذل عنه الناس .

وإذا تركنا خطباء الأحزاب السياسية إلى خطباء الثورات كان أول من نلقاه منهم عبد الله بن حنظلة زعيم ثورة المدينة ضد يزيد بن معاوية ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لبلاغته فى خطابته ، وقد ثار على عبد الملك بالشام سنة ٦٩ للهجرة وقضى عليه . ويلقانا بعد ذلك عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث فى ثورته على الحجاج ، وكان مِدْرهاً مفوَّهاً ، ومن خطباء ثورته عامر بن واثلة الكنانى وعبد المؤمن بن شبث بن ربْعىّ . ولا نصل إلى عصر سليمان ابن عبد الملك حتى يثور عليه قتيبة بن مسلم الباهلى فى خراسان حاضًّا الجند على متابعته . ونستقبل مع أوائل القرن الثانى ثورة يزيد بن المهلب على يزيد ابن عبد الملك ، وكان خطيباً بليغاً ، وطالما خطب فى جنوده يحرضهم على أهل الشام .

وكل من سميناهم من هؤلاء الثوار تتناثر خطبهم فى الطبرى وكتب الأدب ، وهى كلها تدور على إثارة الناس ضد بنى أمية وبيان ما فى حكمهم من ظلم وما يأخذهم به ولأنهم من عَسْف وكيف أنهم جميعاً عطَّلوا أحكام الشريعة واستأثروا بالفَىْء ، حتى لنرى يزيد بن المهلب فى بعض خطبه يجعل جهادهم أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم[5] .

وكان يقف فى الصف المقابل من هؤلاء الخطباء المعارضين خطباء بنى أمية ، يتقدمهم الخلفاء ، ثم الولاة والقواد ، وممن اشتهر من الخلفاء بإحكام الصنعة فى

---

(١) الأشر : البطر . ٤/١٣٥ .
(٢) الخرق : الدهش خوفاً . المهين : الحقير . (٤) طبرى ٥/٣٠ .
(٣) البيان والتبيين ٢/٢٩٩ والعقد الفريد (٥) طبرى ٥/٣٣٥ .

الخطابة مع جهارة المنطق وطلاوة الكلم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز ويزيد الناقص ، وقد وصف بعض الشعراء مهارة معاوية فى خطابته فقال[١] :

رَكوبُ المنابر وثّابهـا مِعَنٌّ بخطبتـه مِجْهَرُ[٢]
تَريعُ إليه هَوادى الكلامِ إذا ضلَّ خُطْبتَه المِهْذَرُ[٣]

وخطابته قسمان : قسمٌ سياسةٌ خالصة ، وقسم مواعظ وترغيب وترهيب ، وهو فى القسم الأول يدعو إلى الطاعة ملوِّحاً بما فى يديه من قوة ومن عطايا وهبات ، ومن خير ما يمثِّل ذلك خطبته فى عام الجماعة سنة ٤١ للهجرة بالمدينة[٤] . وهو فى القسم الثانى ينفِّر من الدنيا والتعلق بمتاعها الزائل ، ومن خير ما يمثل هذا القسم خطبة رواها له الجاحظ[٥] ، وقد اتّهم نسبتها إليه وقال إنها حرية بأن تنسب إلى على بن أبى طالب . والجاحظ بهذا الاتهام يقسو على معاوية ، وكأنه نسى أنه من كُتّاب الوحى وأنه من جِلّة الصحابة . وتتردد فى خطابة عبد الملك مطالبة الرعية بالطاعة لخليفتهم ، مع التهديد والوعيد لمن تحدّثهم نفوسهم بالخروج عليه[٦] ، أما عمر بن عبد العزيز فخطبه مواعظ خالصة ، يتحدث فيها عما ينتظر الإنسانَ من الموت وانتقاله إلى دار الخلود ومحاسبته على ما قدّمت يداه على شاكلة قوله فى كلمة له[٧] :

« أيها الناس! إنكم لم تُخْلَقوا عَبَثاً ولن تُتركوا سُدىً ، وإن لكم معاداً يُحكِّم الله نبيَّكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعتْ كل شىء وحُرِم الجنة التى عَرْضُها السموات والأرض . واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف الله اليوم وباع قليلا بكثير وفائتاً بباق ، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تُرَدُّوا إلى خير الوارثين » .

وليزيد الناقص حين ولى الخلافة بعد قتله ابن عمه الوليد بن يزيد خطبة

---

(١) البيان والتبيين ١/١٢٧ .
(٢) معن : تعن له الخطبة فيخطبها مقتضباً لها .
(٣) تريع : ترجع . هوادى الكلام : أوائله .
(٤) العقد الفريد ٤/٨١ .
(٥) البيان والتبيين ٢/٥٩ وما بعدها .
(٦) العقد الفريد ٤/٤٠١ والأمالى ١/١٢ .
(٧) البيان والتبيين ٢/١٢٠ وعيون الأخبار ٢/٢٤٦ .

بديعة[١] يصور فيها سياسته ودستوره فى الحكم معلناً أنه إن وفّى بما عاهد عليه الله فعلى الناس السمع والطاعة وإلا فلهم أن يخلعوه ، ويقول إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وكان ولاة بنى أمية وقوادهم لا يزالون يستوجبون على الناس الطاعة والولاء لخلفائهم ، نجد ذلك عند عتبة بن أبى سفيان والى مصر وعند ولاة العراق من أمثال زياد والحجاج وخالد القسرى ، وكانوا يضيفون إلى ذلك وعيداً وتهديداً باستخدام القوة . ولعل أحداً لم يبلغ من ذلك ما بلغه الحجاج ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبته فى الكوفة حين قدم على العراق والياً من قبل عبد الملك ، وفيها يقول[٢] :

« إنى لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها ، وإنى لأنظر إلى الدماء ترقرقُ بين العمائم واللّحى . إنى والله يا أهل العراق والشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق ما أُغمز تغماز التين ولا يُقعقعُ لى بالشنان[٣] ، ولقد فُررتُ[٤] عن ذكاء وفُتِّشتُ عن تجربة . إن أمير المؤمنين كتب كنانته[٥] ثم عجم[٦] عيدانها ، فوجدنى أمرّها عوداً ، وأصلبها عموداً ، فوجّهنى إليكم ، فإنكم طالما أوضعتم[٧] فى الفتن واضطجعتم فى مراقد الضلال وسننتم سنن الغىّ . أما والله لألحونّكم[٨] لحوَ العصا ولأضربنّكم ضربَ غرائب الإبل[٩] .. أما والله لتستقيمنّ على طريق الحق أو لأدعنّ لكل رجل منكم شُغلا فى جسده » .

وهو يفتتح هذه الخطبة بأشعار تمتلئ باللفظ الغريب ، حتى يأخذ على سامعيه أنفاسهم . وقد زخرتْ خطبته بأسلوب تصويرى قوى ، وهو يُعَدُّ فى الذروة من أهل الخطابة والبيان فى العصر ، حتى ليوضع مع زياد بن أبيه فى طبقة واحدة ، وإن فضّله زياد بحلاوة منطقه ، فقد كان يمتاز بجزالة اللفظ وفخامته ،

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٤١ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٣٠٧ وعيون الأخبار ٢/٢٤٤ .

(٣) القعقعة : التحريك ، الشنان : جمع شن وهو القربة البالية كانوا يحركونها إذا استحثوا الإبل للسير . مثل يضرب لمن يروعه بما لا حقيقة له .

(٤) فررت : اختبرت .

(٥) الكنانة : جعبة السهام .

(٦) عجم : اختبر .

(٧) أوضع : أسرع فى سيره أو سار بين القوم .

(٨) لحا العصا : قشرها .

(٩) قال الجاحظ : تضرب عند الهرب وعند الملاعبة على الحوض إذ تختلط بغيرها فتضرب وتطرد

ولعل من الطريف أن كتب الأدب احتفظت له بمواعظ كثيرة ، ويُرْوَى أن الحسن البصرى كان يقول عنه إنه «يعظُ عظة الأزارقة ويَبْطش بطش الجبّارين»[١] ومن قوله فى بعض مواعظه : « اللهم أرنى الهدى هدى فأتبعه وأرنى الغَىَّ غيًّا فأجتنبَه ولا تَكِلْنى إلى نفسى فأضلَّ ضلالا بعيداً[٢] » .

وكان خالد القسرى خطيباً مفوهاً ، مع لحن كان فيه ، وكان إذا تكلم ظَنَّ الناس أنه يصنع كلامه لجمال لفظه وبلاغة منطقه ، وله خطب كثيرة يحثُّ فيها على طاعة الخلفاء منذراً متوعداً مَنْ يَنْقُض حَبْلَ الجماعة . وأكثرَ فى خطب الجُمَعِ من المواعظ ، حتى سُمّى خطيبَ الله[٣] ، ويُرْوَى أنه كان يخطب يوماً فسقطتْ جرادة على ثوبه ، فقال[٤] :

« سبحان مَن الجرادةُ من خلقه . أدمجَ قوائمها ، وطوّقها جناحها ، ووشّى جلدها ، وسلّطها على ما هو أعظم منها » .

وإذا كان قواد المعارك الدامية من خوارج وشيعة وثائرين مختلفين حاربوا بنى أمية غضَباً لدينهم كما دار على ألسنة خطبائهم فإن قواد بنى أمية فى الصفوف المقابلة كانوا يزعمون نفس الزعم ، على نمط قول مسلم بن عقبة قائد أهل الشام فى وقعة الحرَّة : « يا أهل الشام أهذا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا عن دينهم وأن يُعِزّوا به نَصْر إمامهم[٥] » وقول المهلب بن أبى صُفرة فى حثّ جنده على قتال الأزارقة : « يا أيها الناس إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج وإنهم إن قدروا عليكم فتنوكم فى دينكم وسفكوا دماءكم[٦] » . فقواد بنى أمية فى هذه الحروب الداخلية كانوا مثل خصومهم يرون أن الحق فى جانبهم وأن أعداءهم أهل غَىٍّ وضلال .

وكان قواد الفتوح شرقاً وغرباً وفى بلاد الروم لا يزالون يحثُّون جنودهم على الاستشهاد فى سبيل الله مقتبسين من آى الذكر الحكيم ما يُشْعِل حماستهم ،

---

(١) البيان والتبيين ٣/١٦٤ .
(٢) البيان والتبيين ٢/١٣٧ والعقد الفريد ٤/١١٥ .
(٣) البيان والتبيين ٢/٢٧٥ .
(٤) عيون الأخبار ٢/٢٤٧ .
(٥) طبرى ٤/٢٧٥ .
(٦) الكامل للمبرد ص ٦٣٠ .

ويذكى جذوة شجاعتهم وبسالتهم ، ومن خير ما يمثّل ذلك خطبة قتيبة بن مسلم الباهلى وقد تهيأ لغزو طُخارستان سنة ٨٦ للهجرة وفيها يقول[١] :

« وعَد الله نبيه صلى الله عليه وسلم النصرَ بحديث صادق وكتاب ناطق ، فقال : (هو الذى أرسل رسولَه بالهدى ودين الحق ليُظْهِرَه على الدين كلِّه ولو كَرِه المشركون) ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب وأعظم الذُّخر عنده ، فقال : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأٌ ولا نصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ فى سبيل الله ولا يَطئون مَوْطِئاً يغيظ الكفارَ ولا ينالون من عدوٍّ نَيْلاً إلا كُتِبَ لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا يُنفقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يَقْطعون وادياً إلا كُتِبَ لهم ليَجْزِيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) وأخبر عمن قُتل فى سبيله أنه حىٌّ مرزوق فقال : (ولا تحسبنَّ الذين قُتِلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرْزَقُونَ) فتنجَّزوا موعود ربكم » .

واشتهر فى خراسان بعد قتيبة غير قائد بالخطابة مثل أسد القسرى ونصر ابن سيَّار ، ويلقانا فى الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس ، وخطبته فى جنده حين دخلها مشهورة[٢] ، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند زياد بن أبيه حتى نتمثَّل تمثلاً واضحاً ما أصاب الخطابة السياسية فى هذا العصر من نهوض ورقى .

زياد[٣] بن أبيه

وُلد فى عام الهجرة أو قبله بقليل لسُمَيَّة جارية فارسية كانت للحارث بن كَلَدَة الثقفى المشهور بطبِّه ، ويقال إنه زوجها ثقفيًّا يسمى عُبَيْداً ، ومن ثم كان يسمَّى فى بعض الروايات زياد بن عبيد . ويذهب بعض الرواة إلى أنه إنما وُلد على فراش الحارث وأن عبيداً كان عبداً روميًّا ، ولم يكن ثقفيًّا .

---

(١) طبرى ٥ / ٢١٤

(٢) انظر نفح الطيب ١ / ١١٢

(٣) انظر فى ترجمة زياد وتحقيق نسبته طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٧٠ وأسد الغابة ٢ / ٢١٥ والمعارف لابن قتيبة (طبعة وتنجن) ص ١٧٦ وتهذيب الأسماء واللغات للنووى ١ / ٢٥٩ والأغانى (طبعة الساسى) ١٦ / ٣ وما بعدها وابن عساكر ٥ / ٤٠٦ والعقد الفريد ٥ / ٤ (راجع الفهرس) ومروج الذهب للمسعودى (طبعة مصر) ٢ / ٥٥ والطبرى فى مواضع متفرقة وكتاب تاريخ الدولة العربية لفلهوزن ص ١١٣ وما بعدها .

وما نتقدم معه إلى عهد عمر . حتى نجد أبا سفيان ينسبه إلى نفسه مدعياً أبوته ، وقد تكون نسبة صحيحة ، وإن تضمنتْ أنه لم يولد لرشدة . وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته . ونراه يخرج مع الجيوش الغازية فى الشرق ، وسرعان ما يعهد إليه عتبة بن غَزْوان قائد عمر فى فتوح الأبُلَّة تسجيل الغنائم وقَسْمها فى الناس ، مما يدلّ على إتقانه الكتابةَ والحساب . ويلزم ولاة البصرة يكتب لهم ، ويوفده واليها أبو موسى الأشعرى إلى عمر . فيُعْجب بذكائه ولَسَنه ، ولكنه يأمر بعزله ، فيقول له : يا أمير المؤمنين أعَنْ عجز أم عن خيانة صرفتنى . فيرد عليه : لا عن واحدة منهما ولكنى أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك[1] .

ويعود إلى البصرة حتى إذا كان عهد عثمان اتخذه عبدالله بن عامر واليها كاتباً له ، ويفسد ما بينهما فيعزله ، حتى إذا صار العراق لعلى وولّى على البصرة ابن عباس جعله على خراجها ، وأنابه عنه أحياناً ، وأظهر فى أثناء نيابته له حُنْكة . ذلك أن معاوية دَسّ إلى تميم بعض من أفسدها على علىٍّ ، فاستجار زياد بالأزد واستطاع بما أوقع بينهما أن يعيد الأمر إلى نصابه ، وأن يعود بتميم إلى طاعة إمامه . ولما فسدت فارس على علىٍّ أرسل به إليها والياً عليها ، فرمّ الفساد وأصلح الشَّعَث ورَأبَ الصَّدْع متوسلا إلى ذلك بمهارة سياسية فائقة . إذ « بعث إلى رؤسائها . فوعد مَنْ نصره ومنّاه ، وخوّف قوماً وتوعّدهم . وضرب بعضهم ببعض . ودلّ بعضهم على عورة بعض ، وحربت طائفة . وأقامت طائفة . وقتل بعضهم بعضاً ، وصفَتْ له فارس فلم يلق فيها جَمْعاً ولا حرباً . وفعل مثل ذلك بكَرْمان[2] . ويقال إن أهل فارس كانوا يقولون : « ما رأينا سيرةً أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربى فى اللين والمداراة[3] » . ولما قُتِل علىٌّ ظل على عهده لابنه الحسن . حتى إذا تحوّلت مقاليد الأمور إلى معاوية اعتصم بفارس ، فكاتبه معاوية متوعداً ، ثم أخذ يتلطف له ووسّط لديه المغيرة بن شُعْبة الثقفى ، ذاكراً ما بينهما من الرَّحِم . وما زال به ، حتى دخل فى طاعته . وفرح به فرحاً عظيماً . إذ كان يعرف فضله ، وأنه لا غنى له عنه فى استصلاح العراق . ولما صار إليه

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٦٠ .
(٢) طبرى ٤/١٠٦ .
(٣) طبرى ٤/١٠٥ .

جمع الناس وصعد المنبر ، وأجلسه بين يديه ، وأشهد الحاضرين على نسبته لأبيه ، وشهدت بذلك منهم جماعة . غير أن كثيرين ظلوا يشكّون فى هذا النسب ويتهمونه. ولم يلبث معاوية أن ولاّه البصرة وخراسان وسجستان سنة ٤٥ للهجرة. فأظهر من الحزم وحسن التدبير ما جعل معاوية يضم إليه الكوفة حين مات واليها المغيرة بن شعبة ، وبذلك أصبح والياً على العراق جميعه حتى وفاته سنة ٥٣ للهجرة . وقد أخذ الفسّاق والجناة بالعنف والشدة ، وكذلك صنع بالخوارج والشيعة وقصتُه مع حُجْر بن عدى مشهورة ، فقد أرسل به إلى معاوية ، وهناك لقى حتفه . على أنه كان يخلط سياسته باللين ، ولم يكن يعمد إلى سفك الدماء إلا حين تُعْجزه الحيلة ، وقد اتبع سياسة ضرْب القبائل بعضها ببعض حتى يشغلهم عنه وعن الدولة . ومن المحقق أنه كان سياسيًّا ماهراً بعيد النظر يحسن تصريف الأمور إلى أبعد غاية .

وكان خطيباً لا يبارَى فى جودة خطابته ، يعرف كيف يصوغ كلمه صوغاً تَهَشُّ له الأسماع وتُصْغى له القلوب والأفئدة ، وقد نوّه بخطابته كثير من معاصريه على شاكلة قول الشَّعْبى : « ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يُسيء إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً[1] ». وخطبُه مثل خطب الحجاج تدور فى موضوعين هما السياسة والمواعظ الدينية ، وقد بقيت من خطبه الأولى شظايا وفقر وخطبة طويلة هى أروع خطبة سياسية خلّفها هذا العصر ، وهى الملقبة بالبَتْراء[2] ، سُمّيت بذلك لأنها لم تبتدئ بالتحميد والتمجيد[3] ، وقد أدخله عليها بعض الرواة .

والخطبة تُجْمل سياسة زياد التى اشتهر بها والتى رَدَّتْ إلى البصرة أمْنها بعد أن عاث فيها الفُسّاق واللصوص واضطرب حَبْلُ النظام ، وقد بدأها بتصوير ما صار إليه أهلها من الفساد وشيوع الفسق والانحراف عما رسَم الله للمسلمين فى كتابه من السيرة المستقيمة الطاهرة ، يقول :

---

(١) البيان والتبيين ٢/٦٥ . الأخبار ١/٢٤١ والعقد الفريد ٤/١١٠ .

(٢) انظرها فى البيان والتبيين ٢/٦٢وعيون (٣) البيان والتبيين ٢/٦ وانظر ٢/٦٢ .

« أما بعد فإن الجهالة الجَهْلاء[١] والضلالة العَمْياء والغَيَّ الموفَ بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ينْبت فيها الصغير ولا يَنْحاش[٢] عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السَّرْمد[٣] الذى لا يزول . أتكونون كمن طَرفتْ[٤] عينيه الدنيا وسَدَّت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدَث الذى لم تُسْبَقوا إليه من تركِكم الضعيفَ يُقْهَرُ ويُؤْخَذُ ماله وهذه المواخيرَ[٥] المنصوبة والضعيفةَ المسلوبةَ فى النهار المبصر ، والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نُهاةٌ تمنع الغُواة عن دَلج[٦] الليل وغارة النهار؟! قرَّبتم القرابة وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر وتُغْضون على المختلس . أليس كل امرئ منكم يذبُّ عن سفيهه صُنعَ من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بهم ما يرون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرَمَ الإسلام » .

وعلى هذا النحو استهلَّ خطبته بتجسيم صور الفساد التى انتهت إليها حياة الناس فى البصرة ، وهو فى أثناء ذلك يقرِّع سامعيه بأنهم انتبذوا كتابَ الله وراء أظهرهم مؤثرين الفانيةَ على دار الخلود ، وكأنما عادوا يجترُّون حياتهم الوثنية القديمة وكل ما كان فيها من إثم . حتى إذا بلغ من ذلك كل ما أراد انتقل يصور خطتَه فى حكمهم وما أعدَّه لهم من ضروب العقوبات ، يقول :

« إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لينٌ فى غير ضعف وشدة فى غير عنف ، وإنى أقسم بالله لآخذنَّ الولىَّ بالمولى[٧] والمقيمَ بالظاعن والمقبلَ بالمدبر والمطيعَ بالعاصى والصحيحَ منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : (انْجُ سَعْدُ فقد هلك سُعَيْد) أو تستقيمَ لى قَناتكم . . من نُقِب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب له ، وإياى ودَلج الليل فإنى لا أوتَى بمُدلج إلا سفكت دمه .. وإياى ودعوى[٨] الجاهلية فإنى لا آخذ

---

(١) الجهلاء : وصف مؤكد كما تقول ليلة ليلاء.
(٢) ينحاش : ينفر .
(٣) السرمد : الدائم .
(٤) طرف عينه : أصابها بشىء فدمعت .
(٥) المواخير : جمع ماخور ، وهو بيت الريبة .
(٦) الدلج : السير فى الليل .
(٧) الولى : السيد ، المولى : العبد .
(٨) دعوى الجاهلية : قولهم يالتميم مثلا ، إثارة من الشخص لقومه .

داعياً بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرَّق قوماً غرَّقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه . ومن نَقَبَ بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنَّاه فيه حيًّا ، فكفُّوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفُّ عنكم يدى ولسانى ، ولا تظهرُ على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلاضربت عنقه . وقد كانت بينى وبين أقوام إحَنٌ[1] جعلتها دبْرَ[2] أذنى وتحت قدمى ، فمن كان منكم مسيئاً فلينزع عن إساءته . إنى والله لوعلمت أن أحدكم قتله السُّلّ من بغضى لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له ستراً ، حتى يبدى لى صَفْحته[3] ، فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم وأرْعوا[4] على أنفسكم ، فربَّ مسوءٍ بقدومنا سنسرّه ، ومسرورٍ بقدومنا سنسوءه » .

وهذه الفقرة من الخطبة تصور بجلاء سياسة زياد ودستوره فى حكم البصرة ، وهو دستور أوضَح فيه موادَّ العقوبة وأنه سيأخذ بالظِّنَّة ويعاقب على الشبهة ، وأنه قد جرّد سيفه لقتل من لا يَرْعوى ، وأن من عاد إلى العصبية الجاهلية يستثير قومه سيقطع لسانه . ونجحت هذه السياسة فى إعادة الأمور إلى نصابها فى ولايته واستقرار الأمن ، حتى قالوا إن المرأة كانت تَبيت وبابها مفتوح عليها لا تخشى لصًّا ، وكان الشىء يَسْقط فلا يعرض له أحد حتى يرجع إليه صاحبه ، فيأخذه ، وقالوا أيضاً إن الناس هابوه هيبة لم يهابوها أحداً من الولاة قبله . وفى نفس هذه الفقرة ما يصور رفق زياد برعيته ، فهو لا يبطش للبطش ، وإنما يبطش على الجُرْم ، أما بعد ذلك فليِّن رفيق بالناس ، وهو يجهر بذلك حين يلخِّص خطته فى الحكم بأنها لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف ، وأيضاً حين يجهر فى ختام الفقرة بأنه سيصانع الناس حتى أعداءه ما صانعوه . ويمضى فى فقرة ثالثة ، يبين ما يجب على الناس من الطاعة للخليفة وولاته ، يقول :

« أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفَيْء[5] الله الذى خوَّلنا . فلنا عليكم السمع والطاعة

---

(١) إحن : جمع إحنة ، وهى الحقد والضغينة .
(٢) دبر : خلف . كناية عن أنه لا يهتم بها .
(٣) أبدى صفحته : جاهر بعداوته .
(٤) أرعوا : أبقوا وارفقوا .
(٥) الفيء هنا : الخراج وغنائم الحروب .

فيما أحببنا، ولكم علينا العدلُ والإنصاف فيما وُلِّينا، فاستوجبوا عدلنا وفَيْئَنَا بمناصحتكم لنا .. وادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدِّبون وكَهْفُكم الذى إليه تأوون، ومتى يَصْلحوا تَصْلحوا، ولا تُشْرِبوا قلوبكم بُغْضهم، فيشتدّ لذلك غيظكم، ويطولَ له حزنكم، ولا تدركوا به حاجتكم، مع أنه لو استُجيب لكم فيهم لكان شرًّا لكم. أسأل الله أن يُعِينَ كلاًّ على كلٍّ. وإذا رأيتمونى أُنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله[1]، وإيمُ الله إن لى فيكم لصَرْعى كثيرة، فليحذرْ كل امرئٍ منكم أن يكون من صَرْعاى » .

وزياد فى هذه الفقرة يستلهم فكرة التفويض الإلهى المعروفة عند الفرس، إذ كانوا يؤمنون بأن ملوكهم مفوَّضون لحكمهم من قِبَل ربهم، وفى ذلك دلالة واضحة على تأثر الخطباء بالأفكار الأجنبية. وهو يلوِّح لسامعيه بما فى يد الدولة من أموال الخراج ومغانم الحروب وأنها ستنثرها على رعاياها المطيعين الموالين لها نَثْراً، ولا يلبث أن يهدِّد من تحدِّثهم أنفسهم بنقض الطاعة أنهم إن صنعوا فالسيف ينتظرهم وضَرْب الرقاب .

والخطبة على هذا النحو خطبة سياسية خالصة، إذ ترسم سياسة زياد وطريقته فى الحكم من جميع أطرافهما. وهى مقسَّمة إلى فقر تتسلسل فيها الأفكار تسلسلا دقيقاً، وكل لفظة تقع فى مكانها وقرارها مع جمال الديباجة ووضوح الدلالة؛ فلا توعُّر ولا تعقيد ولا كلم غريب .

وكان زياد بحكم خطابته فى الجمع والأعياد يعمد إلى الوعظ كثيراً، وهو فيه يُبْدع، كما يبدع فى خطبه السياسية، ونسوق له من هذا الباب موعظة يقال إن عبد الملك بن مروان كتبها بيده، وهى تطَّرد على هذا السياق[2] :

« إن الله عز وجلَّ جعل لعباده عقولا عاقبهم بها على معصيته وأثابهم بها على طاعته، فالناس بين محسنٍ بنعمة الله ومسيءٍ بخذلان الله إياه. ولله النعمةُ على المحسن والحجة على المسيء. فما أولى من تمّت عليه النعمة فى نفسه ورأى العبرة فى غيره أن يضع الدنيا بحيث وضَعها الله، فيُعْطى ما عليه منها ولا يتكثَّر

---

(١) اذلاله : وجوهه .

(٢) البيان والتبيين ١/٣٨٧ .

مما ليس له فيها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله عزّ وجل ، فأحذّركم الله الذى حذّركم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرّته العَجزة ، قبل أن تَصيروا إلى الدار التى صاروا إليها ، فلا تقدروا فيها على توبة ، وليست لكم منها أوْبة » .

وواضح ما فى هذه الموعظة من حسن التقسيم ودقة التفكير وسلامة المنطق والقدرة على الإقناع بالحجة ، وحقًّا ما قاله عنه بعض معاصريه ، وقد استمع إليه فى بعض خطبه ، من أنه أوتى حُسْنَ البيان وبراعة الخطاب .

٣

خطباء المحافل

مَرَّ بنا أن العرب عرفوا من قديم هذا اللونَ من الخطابة ، إذ كانوا يَقْعُدون على ملوكهم وأمرائهم ، فيخطبون بين أيديهم مُثْنين عليهم ، ومفاخرين بقبائلهم . وكانوا يخطبون فى أقوامهم مصلحين بين العشائر أو منافرين أو حاثين على الحرب أو داعين لأن تضع أوزارها . وكثيراً ما خطبوا فى الأسواق وفى عقد المصاهرات . ونراهم بعد فتح مكة يقدمون على الرسول زُرافات ، يتقدمهم خطباؤهم وكانوا كثيراً ما يخطبون بين أيدى الخلفاء الراشدين . ولا نتقدم فى عصر بنى أمية ، حتى تنشط هذه الخطابة نشاطاً واسعاً ، وكان مما أذكى جذوتها فى نفوسهم أن الأمويين وولاتهم فتحوا أبوابهم للعرب ، كى يطمئنوا إلى حسن ولائهم لدولتهم ، فكانت وفودهم تَمْثُلُ بين أيديهم ، وكانوا يُغْدقون عليها إغداقاً واسعاً .

ومعاوية هو أول من فتح أبوابه على مصاريعها لتلك الوفود ، فكانت تَرِدُ تباعاً إلى ساحته ، تعلن تارة ولاءها ، وتارة تعرض ظُلامة لها ، وهو دائم الحفاوة بها ، يُضْفى عليها من نواله الغَمْر ، وتبعه الخلفاء الأمويون من بعده يستنون سُنَّته . وممن اشتهر بالخطابة بين يديه سَحْبان ، خطيب وائل ، وقد اشتهر بخطبته « الشَّوْهاء » التى خطب بها عنده ، فلم يُنْشد شاعر ولم يخطب خطيب [1] ،

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٣٤٨ .

ويقول الجاحظ : « إنه كان أذكر الناس لأول كلامه وأحفظهم لكل شيء سَلَف من منطقه[١] » . ومنهم الأحنف بن قيس خطيب تميم الذى لا يدافع وصُحار بن عَيَّاش العَبْدى ، الذى قال له معاوية : « ما هذه البلاغة التى فيكم؟ قال : شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا[٢] » ومعاوية يشير إلى ما اشتهر به قومه بنو عبد القيس من الخطابة . ويذكر الجاحظ من خطبائهم بنو صُوحان وكانوا شيعة ، ومَصْقلة بن رَقَبة ورقبة بن مصقلة وكَرِب بن مصقلة[٣] ، ويقول إنه كان لهم خطبة تسمى « العجوز » ومتى تكلموا فلابد لهم منها أو من بعضها[٤] ويقابل آل رَقَبة وصُوحان فى بنى عبد القيس آل الأهتم فى تميم ، وعلى رأسهم عمرو بن الأهتم الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وقد استمع إلى بعض كلامه البليغ « إن من البيان لسحراً » وكان أخوه عبد الله على مثاله خطيباً رائعاً ، وله مقامات ووفادات[٥] ، ومثله ابناه صفوان وعبد الله ، وخالد بن صفوان وشَبيب بن شَيْبَة بن عبد الله . ومن الخطباء الأبْناء عبد العزيز بن زُرارة الكلابى ، وهو الذى خاطب معاوية بقوله[٦] :

« يا أمير المؤمنين لم أزل أستدلّ بالمعروف عليك ، وأمتطى النهار إليك ، فإذا ألْوَى[٧] بى الليل فقُبِضَ البصر وعُفِّىَ الأثر أقام بدنى وسافر أملى ، والنفس تلوَّم والاجتهاد يَعْذِر ، وإذ قد بلغتك فقَطْنى[٨] » .

وواضح ما فى هذه الخطبة القصيرة من دقة التعبير وجمال التصوير . وعلى هذا النحو تمضى خطابة المحافل ، إذ كان الخطيب يروّى فيها طويلا حتى يروق لفظه الخليفة ومَنْ بحضرته ، وربما جعلهم ذلك يسجعون فى خطابتهم حتى يخلبوا الألباب بحسن بيانهم . وبلغ من إحسانهم لمنطقهم أن كان شباب الكتّاب فى دواوين دمشق يحضرون مقاماتهم حريصين على استماعهم . وكانت هناك مواقف سياسية كثيرة تدعو هؤلاء الخطباء إلى المنافسة الحادة بينهم وأن يحاول كل منهم إحراز الغلبة على نحو ما كان من خطباء الوفود الذين تباروا يوم عقد معاوية

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٣٩ .
(٢) البيان والتبيين ١/٩٦ .
(٣) نفس المصدر ١/٩٧ .
(٤) البيان والتبيين ١/٣٤٨ .
(٥) نفس المصدر ١/٣٥٥ .
(٦) البيان والتبيين ٢/٧٥ .
(٧) ألوى هنا : استأثر .
(٨) قطنى : يكفينى .

البيعة لابنه يزيد[١]، وعلى نحو ما كان من عمران بن عصام العَنَزِيّ فى خطبته التى صدر فيها عن رغبة عبد الملك فى خلع عبد العزيز أخيه والبيعة لابنه الوليد[٢]. ومن ذلك الجمع بين التهنئة بالخلافة والتعزية، وكان أول من فتح هذا الباب عبد الله بن همام السلولى الكوفى، فقد دخل على يزيد بن معاوية حين استُخْلف والناس مجموعون على بابه يتهيَّبون القول، فقال[٣]:

« يا أمير المؤمنين آجرك الله على الرَّزِيَّة، وبارك لك فى العطية، وأعانك على الرعية، فلقد رُزئت عظيماً، وأُعطيت جَسيماً، فاشكر الله على ما أُعطيت، واصبرْ له على ما رُزيت، فقد فقدت خليفة الله، ومُنحت خلافة الله، ففارقت جليلا، ووُهِبْتَ جزيلا ». .

وبذلك انفتح باب الكلام للخطباء. وتلقانا من هذا التأبين الممزوج بالتعزية نصوص متعددة فى المناسبات المماثلة. وممن اشتهر بكثرة الوفادات عليه من خلفاء بنى أمية عبد الملك بن مروان، فكانت ترد على بابه الوفود من كل قطر، وكان الحجّاج كثيراً ما يستصحب معه طائفة من وجوه أهل العراق ويقوم خطباؤهم بين يديه. وكان سليمان ابنه يتأله فوفد عليه غير واعظ من مثل أبى حازم[٤]، ولم يكثر الوعاظ على بابٍ كثرتهم على باب عمر بن عبد العزيز[٥]، منهم خالد بن صَفْوان وعبد[٦] الله بن الأهتم ومحمد[٧] بن كعب القُرَظى. وكان هشام بن عبد الملك يوسع لخالد بن[٨] صفوان فى مجالسه، ولما فَرَّ الكميت من سجن خالد القسرى وضاقت به الأرض بما رَحُبَتْ لجأ إلى ساحته متوسلا ببعض أهله، حتى إذا مثَل بين يديه خطب خطبة طويلة[٩] يستنزل بها عطفه عليه، فرقّ له وعفا عنه.

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٠٠ وعيون الأخبار ٢/٢١٠ والعقد الفريد ٤/٣٦٩ والأمالى ٢/٧٣، ٣/١٧٧.
(٢) البيان والتبيين ١/٤٨.
(٣) زهر الآداب ١/٤٩.
(٤) البيان والتبيين ٣/١٣٥.
(٥) زهر الآداب ١/٧.
(٦) البيان والتبيين ٢/١١٧.
(٧) نفس المصدر ٢/٣٤ و ٣/١٤٣، ١٧٠ وعيون الأخبار ٢/٣٤٣، ٣٧٠.
(٨) البيان والتبيين ١/٣٥٥ وعيون الأخبار ٢/٣٤١.
(٩) أغانى (ساسى) ١٥/١١٣.

ولم تكثر هذه الوفادات على أبواب الخلفاء فحسب ، فقد كان الخطباء يفدون على الولاة ، واشتهر عمران بن حِطّان بوفادة له على زياد بن أبيه ، ألقى فيها خطبة رائعة[١] . ومَنْ وفدوا على الحجاج كثيرون ، منهم جامع المحاربى وقد تسخّطه ببعض قوله[٢] ، وكان قواده لا يَنْفُون يرسلون إليه من يخبره بانتصاراتهم على نحو ما أرسل إليه المهلب كعب بن مَعْدان الأشقرى ينبئه بقضائه على الأزارقة[٣] .

وتلقانا بجانب هذه الوفادات أخبار عن خطبهم فى المصاهرات[٤] وفى إصلاح ذات البَيْن[٥] . وهناك خطب تأخذ شكل المنافرات القديمة ، وهى تلك التى يقال إنها حدثت بين بعض بنى هاشم وعمرو بن العاص وبعض الأمويين وقد سبق أن ضعّفناها ، ورجّحنا انتحالها ، ومثلُها ما يُرْوَى فى بعض كتب الأدب من خصومة أبى الأسود الدُّؤَلى وزوجه وارتفاعهما إلى زياد . وربما كان أهم خطيب اشتهر فى هذه المحافل الأحنف بن قيس ، ويحسن أن نقف عنده وقفة قصيرة .

الأحْنَف[٦] بن قيس

اسمه صخر ، وقيل الضحاك ، من بنى سعد إحدى عشائر تميم لُقّب بالأحنف لحنَف[٧] كان فى رجليه جميعاً ، وكان دميم الهيئة تقتحمه العين ، ولكنه كان يجمع خصال السيادة والشرف ، من حُنْكة وحلم وحزم ومروءة وثقة بالنفس ومصارحة بالرأى مع حسن البيان وذلاقة اللسان . وقد نزل البصرة مع عشيرته لأول العهد بالفتوح مشاركاً فيها ، وأرسله بعض ولاتها فى وفد إلى عمر سنة سبع عشرة للهجرة ، وكان لا يزال فى مطالع شبابه ، ليعرضوا عليه شئون بلدتهم وما يحتاجون إليه فيها من زيادة

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٨ .
(٢) نفس المصدر ٢/١٣٥ .
(٣) الكامل للمبرد ص ٦٩٤ والأغانى (طبع دار الكتب) ١٤/٢٨٣ .
(٤) البيان والتبيين ١/٤٠٤ ، ٤/٧٣ وعيون الأخبار ٤/٧٢ والعقد الفريد ٤/١٤٩ .
(٥) البيان والتبيين ١/١٠٥ ، ١٧٣ ، ٢/١٣٥ .
(٦) انظر فى الأحنف طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٦٦ والاشتقاق ص ٢٤٩ والمعارف ص ٢٩ وزهر الآداب ١/٤٦ ووفيات الأعيان لابن خلكان والبيان والتبيين والطبرى (راجع فهرسهما) .
(٧) الحنف : الاعوجاج فى الرجل .

الأرزاق ومن شَقّ بعض القنوات والأنهار، وتكلم الوفد، وهو ساكت، فطلب إليه عمر أن يتكلم، فما كاد يتم كلامه حتى أعجب بروعة منطقه إعجاباً شديداً، يقول الجاحظ: «نظر عمر إلى الأحنف وعنده الوفد، والأحنف ملتفٌّ في بَتّ[1] له، فترك جميع القوم واستنطقه، فلما تبعّق[2] منه ما تبعق، وتكلّم بذلك الكلام البليغ المصيب وذهب ذلك المذهب لم يزل عنده في علياء، ثم صار إلى أن عقد الرياسة ثابتة له (في تميم) إلى أن فارق الدنيا»[3]. ويقولون إنه استبقاه عنده حولا كاملا ليبالغ في تصفح حاله. وعاد إلى البصرة وأخذ يَفِدُ على عمر من حين إلى حين كما أخذ يسهم مساهمة قوية في فتوح فارس وخراسان لعهد عمر وعثمان، وأظهر براعة نادرة في قيادة الكتائب والجيوش، إذ كان النصر دائماً يرافقه.

ونراه في وقعة الجمل يقف موقف الحياد من خصومة علي والسيدة عائشة وطلحة والزبير، ومعه أربعة آلاف سيف من قومه أُعمدت استجابة لرأيه، حتى إذا انتصر عليٌّ دخل هو ومشايعوه من تميم في طاعته، وأصفاه ولاءه، حتى إذا كانت وقعة صِفّين أبْلَى فيها بلاءً حسناً هو وقومه. وتذكر الروايات أنه كان ممن رأوا مواصلة القتال مع أهل الشام وأنه أشار على عليٍّ أن يحكّم شخصاً آخر غير أبي موسى الأشعري ينهض أمام خبث عمرو بن العاص ودهائه. وما زال على ولائه لعلي إلى أن لبّى ربه فدخل فيما دخل فيه الناس من البيعة لمعاوية. وكان معاوية وولاته وخاصة زياداً يُكبرونه إكباراً عظيما، ونراه يُصْبح سفيراً لقومه لدى معاوية، فهو يَفِدُ عليه من حين إلى حين، ويوسع له في مجالسه، بل لقد كان يختصه بالجلوس في جواره على سريره.

وفي هذه الحقبة من حياته يصبح أكبر شخصية في البصرة، بعد ولاتها، وفي الحق أنه كان يجمع كل مزايا السؤدد من حلم وأناة وبعد نظر وعمل على مصلحة القبيلة، حتى قالوا إنه كان إذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيمَ غضب. وبلغ من سؤدده أنه لم يكن يُداري، وأنه كان يجهر برأيه

---

(١) البت: كساء صوف غليظ.

(٢) تبعق المطر: تفجر وانسال.

(٣) البيان والتبيين ١/٢٣٧ وانظر ١/٢٥٤.

لا يخشى لومة لائم ، حتى الخليفة مع اصطناعه له وولائه كان إذا سأله فى شىء يعرف رغبته فيه ، وهو لا يريده ، جاهره برأيه فى رفق ، ومن خير ما يمثل ذلك كلمته عقب الوفود التى استقدمها معاوية للبيعة لابنه يزيد ، فإنه حين جاء دوره فى الكلام قال[1] :

« يا أمير المؤمنين أنت أعلم بيزيد فى ليله ونهاره وسِرّه وعلانيته ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله رضاً ولهذه الإمة فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم منه غير ذلك فلا تزوّده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة » .

وكأنه لم يكن يرضى خلافة يزيد ، فدخل إلى تصوير رأيه هذا المدخل الرفيق . ويتوفّى يزيد ، ويُضْطَرُّ عبيدالله بن زياد إلى مغادرة البصرة ويُسْلِم أمورها إلى الأزد و زعيمها مسعود ، وتثور تميم وتقتله ، وتنشب الحرب بينها وبين الأزد ، ويقع بعض الصرعى ، فيتدخل الأحنف ، ويَحْقن الدماء بين الطرفين المتنازعين ، مؤدياً ديات القتلى من ماله . وتخضع العراق لابن الزبير ، وتدخل تميم بزعامة الأحنف فى طاعته ، ويقرّبه مصعب ويصبح من خُلَصائه ، فيقف معه فى حرب المختار الثقفى ، ولا يمتد به أجله ، إذ يتوفى فى أواخر العقد السابع من القرن الأول مبكيًّا من قومه وعارفيه ، ويُرْوى أن فَرْغانة بنت أوس بن حَجَر التميمية وقفت على قبره ، فأبَّنَتْه قائلة[2] :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ، رحمك الله أبا بحرٍ[3] من مُجَنٍّ[4] فى جَنَنٍ ، ومُدْرَج فى كفَنٍ ، فوالذى ابتلانا بفقدك ، وأبلغنا يوم موتك ، لقد عشتَ حميداً ، ومتَّ فقيداً ، ولقد كنت عظيم الحلم ، فاضل السِّلْم ، رفيع العماد ، وارىَ الزِّناد ، منيعَ الحريم ، سليم الأديم ، وإن كنت فى المحافل لشريفاً ، وعلى الأرامل لعطوفا ، ومن الناس لقريبا ، وفيهم لغريباً ، وإن كنت لمسوَّدا ، وإلى الخلفاء لموفَّدا ، وإن كانوا لقولك لمستمعين ، ولرأيك لمتبعين » .

ومرَّ بنا آنفاً كيف أن عمر بن الخطاب أعْجب ببلاغته وحسن بيانه ، ووصفه الجاحظ فقال إنه « أنْف مُضَر الذى تَعْطس عنه وأبْيَنُ العرب والعجم

---

(١) العقد الفريد ٤/٣٧٠ .
(٢) البيان والتبيين ٢/٣٠٢ .
(٣) أبو بحر : كنية الأحنف .
(٤) أجنه : ستره . تريد أنه ستر فى الجن أى وضع فى القبر .

قاطبة[١]» . ونحن لا نقرأ خطبه التى كان يلقيها بين أيدى الخلفاء، حتى يروعنا منطقه، لقدرته على حَوْك الكلام وتوشيته أحياناً بالسجع وأساليب التصوير . ولم يكن يُطيل فى هذه الخطب ، بل كان يعمد إلى الإيجاز والكلم القصار ، فيبلغ بها كل ما يريد من حاجته وحاجة قومه ، ونسوق له كلمتين تصوران منطقه ، فقد وفد على معاوية مرة، فقال يصف أهل البصرة وما يؤملونه فى الخليفة من مَدِّ يد العون والمساعدة[٢] :

يا أمير المؤمنين أهل البصرة عدد يَسير وعظم كَسير ، مع تتابع من المُحول واتصال من الذُّحول[٣] ، فالمكثر فيها قد أطْرَق[٤] ، والمقِلّ قد أملق ، وبلغ منه المخْنَق ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعش الفقير ، ويَجْبُرَ الكسير ، ويسهل العسير ، ويصفح عن الذّحول ويداوى المحول ، ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء ، ويزيل اللأواء[٥] . وإن السيد من يعمّ ولا يخصّ ومن يدعو الجَفَلَى[٦] ، ولا يدعو النَّقَرَى[٧] ، إن أُحسن إليه شكر وإن أُسيء إليه غفر ، ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عماداً يدفع عنها الملمات ، ويكشف عنها المعضلات » .

ومثل هذا اللحن من القول كان يقدّمه الخلفاء لبلاغته وحسن تأتّيه فى تصوير ما جاء من أجله ، إذ كان يسلك إليه المداخل الدقيقة ، فيُمْضونه فى التوّ والساعة . ويظهر أنه قال هذه الكلمة عقب حروب على ومعاوية ولذلك مضى يطلب إليه الصفح الجميل ، مستعطفاً ، ولكنه الاستعطاف الذى يُبْقى فيه الرجل الكريم على مروءته . ودائماً كلما قرأناه أحسسنا عنده رجاحة العقل وأنه لا يرسل كلامه إرسالا ، بل ما يزال يتمهل فيه ، سواء عمد إلى السجع أو لم يعمد ، مورداً من اللفظ ما يحيط بالمعانى التى يعبّر عنها إحاطة تامة ، وتصور ذلك كلمته الثانية التى أشرنا إليها كما صورته كلمته الآنفة ؛ وقد ألقى بها حين ادلهمّ الأمر بعد وفاة يزيد بن معاوية واصطدام الأزد بقبيلة تميم ، فقد توجه إلى الأولين يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيه[٨] :

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٦٠ .
(٢) زهر الآداب ١/ ٤٦
(٣) الذحول : الثارات .
(٤) أطرق : هزل وضعف .
(٥) اللأواء : الشدة .
(٦) الدعوة الجفلى : الدعوة العامة .
(٧) الدعوة النقرى : الدعوة الخاصة .
(٨) البيان والتبيين ٢/ ١٣٥ .

« يا معشر الأزد وربيعة أنتم إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الصِّهْر وأشقاؤنا فى النسب وجيراننا فى الدار ، ويَدُنا على العدو . والله لأزْدُ البصرة أحبُّ إلينا من تميم الكوفة ، ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام ، فإن استَشْرى[1] شَنَآنكم ، وأبى حَسَكُ[2] صدوركم فى أموالنا وأحلامنا سَعَة لنا ولكم » .

ونزلت الكلمة على الأزد برداً وسلاماً ، فأغْمدت الأسنة وحُقنت الدماء . وعلى هذا النحو تُشْبِت خطب الأحنف وسيرته صدق فراسة ابن الخطاب فيه ، إذ اعتبره سيدَ قومه وخطيبَ مِصْره .

٤

خطباء الوعظ والقَصَص

نشط الوعظ والقَصَصُ الدينى فى هذا العصر نشاطاً عظيما ، فقد كان الوعّاظ والقُصّاص فى كل بلدة إسلامية لا يَنُون عن وعظ المسلمين ، وقد أفرد لهم الجاحظ فى بيانه صحفاً كثيرة ، أورد فيها أسماء طائفة من مبرّزيهم وكثيراً مما كانوا يعظون به الناس . ومن أشهر من وقف عندهم هو وغيره من أصحاب كتب الأدب والتاريخ الأسودُ بن سريع وهو أول من قَصّ بالبصرة[3] ، وكان يقابله فى الكوفة زيد[4] بن صُوحان وفى المدينة عُبَيْد بن عُمَيْر[5] وكان عبدالله بن عمر يتأثر بقصصه ووعظه حتى ليبكى من شدة تأثره . ومن القُصّاص أيضاً إبراهيم[6] التَّيمى الكوفى وسعيد بن جُبير ، وكان يقص بعد صلاة الفجر وبعد صلاة العصر[7] ، ومسلم[8] بن جندب قاصّ مسجد المدينة ، وذَرّ[9] بن عبد الله ، وكان بليغاً ، وهو الذى كان يقصُّ فى جند ابن الأشعث حاثّا الناس على حرب الحجاج . ومطرّف

---

(١) استشرى : تفاقم . الشنآن : العداوة .
(٢) حسك الصدور : الحقد .
(٣) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٢٨ .
(٤) ابن سعد ج ٦ ص ٨٤ .
(٥) ابن سعد ج ٥ ص ٣٤١ والبيان والتبيين ١/٣٦٧ .
(٦) ابن سعد ج ٦ ص ١٩٩ .
(٧) ابن سعد ج ٦ ص ١٧٨ .
(٨) البيان والتبيين ١/٣٦٧ .
(٩) انظر فى مواعظه عيون الأخبار ٢/٢٩٨ والعقد ٣/١٩٨ .

ابن عبدالله الشَّخِّير وكان يقص في مكان أبيه بمسجد البصرة[١]، ومنهم وهب[٢] بن منبِّه ويزيد بن أبان الرَّقاشي، ويذكر الجاحظ من وعظه[٣] . « ليتنا لم نُخْلَق، وليتنا إذ خُلقنا لم نَعْصِ، وليتنا إذ عَصينا لم نمت، وليتنا إذ متنا لم نُبْعَثْ، وليتنا إذ بُعثنا لم نحاسَبْ، وليتنا إذ حوسبنا لم نعذَّب، وليتنا إذ عُذبنا لم نخلَّد » .

فالقُصَّاص كانوا وعَّاظاً في الوقت نفسه، بل هم لا يقصُّون إلا من أجل الوعظ، وممن اشتهروا بوعظهم عبد[٤] الله بن عمرو بن العاص في مصر ورجاء[٥] ابن حَيْوة والأوزاعي[٦] في الشام وسعيد[٧] بن المسيَّب وأبي حازم الأعرج في المدينة، ولثانيهما مواعظ كثيرة كان يعظ بها سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز، ومن قوله في بعض هذه المقامات وقد سُئل ما مالك ؟ قال : مالان : الثقة بما عند الله واليأس مما في أيدي الناس[٨] . ومن وعاظ المدينة أيضاً محمد[٩] بن كعب القُرَظي واعظ عمر بن عبد العزيز . وكان العراق يموج بالوعاظ موجاً، من مثل ابن[١٠] شُبْرُمة ومورِّق[١١] العِجْلي وبكر[١٢] بن عبد الله المُزَنيّ والشَّعبي[١٣] وأيوب[١٤] السَّخْتياني ومحمد بن واسع الأزدي البصري، وقد تولى الوعظ في جيش قتيبة بن مسلم بخراسان وفيه يقول إنه أحب إليّ من مائة ألف سيف شهير وسنان طَرير[١٥] . ومن كبار الوعاظ والقصاص مالك[١٦] بن دينار، وكان يقول في قصصه : ما أشد فِطام الكبير، وينشد :

وتروض عِرْسك بعد ما هرمتْ ... ومن العناء رياضةُ الهَرِمِ

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٦٧ وعيون الأخبار ٢/٢٨٩ .

(٢) انظر في مواعظه عيون الأخبار ٢/٢٧٢ وما بعدها، ٢/٢٨١، ٣٢٨ .

(٣) البيان والتبيين ١/٢٦٢ .

(٤) عيون الأخبار ٢/٢٩٤ .

(٥) انظر طرفاً من مواعظه في صفة الصفوة ٤/١٨٦ .

(٦) انظره في صفة الصفوة ٤/٢٢٨ .

(٧) راجع صفة الصفوة ٢/٤٤ .

(٨) البيان والتبيين ٣/١٣٩ .

(٩) انظر البيان والتبيين ٢/٣٤، ٣/١٤٣، ١٧٠ .

(١٠) البيان والتبيين ١/٣٣٦ والعقد ٣/١٥٠، ١٨٣ .

(١١) البيان والتبيين ١/٣٥٣ وانظر ٢/١٩٨ .

(١٢) نفس المصدر ١/٣٥٣ وانظر ٣/١٤١ .

(١٣) البيان والتبين ٢/٣٢٢ وصفة الصفوة ٣/٤٠ .

(١٤) راجع صفة الصفوة ٣/٢١٢ .

(١٥) البيان والتبيين ٣/٢٧٣ والعقد الفريد ٣/١٧٠ وطرير : محدد .

(١٦) البيان والتبيين ٢/٧٩ وصفة الصفوة ٣/١٩٧ .

ومنهم إياس بن معاوية قاضى البصرة، وكان يُضْرَبُ به المثل فى الذكاء وصدق الفِراسة[١]، ومنهم خالد بن صفوان وشَبيب بن شيبة الأهتميان التميميان، وفيهما يقول الجاحظ : « ما علمت أنه كان فى الخطباء أحد كان أجود خطباً من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة للذى يحفظه الناس ويدور على ألسنتهم من كلامهما[٢] » ويقول فى خالد : « ومن الخطباء المشهورين فى العوام والمقدَّمين فى الخواص خالد بن صفوان . . ولكلامه كتابٌ يدور فى أيدى الورَّاقين[٣] » وقد لحق خالد عصر أبى العباس السفاح، وكان من سُمَّاره، ويُؤْثَرُ عنه أنه كان يقول : « احذروا مجانيق الضعفاء يعنى الدعاء[٤] » ومن قوله : « بِتُّ ليلتى كلها أتمنى فلأت البحر الأخضر بالذهب الأحمر فإذا الذى يكفينى من ذلك رغيفان وكوزان وطِمْران[٥] » وروَى له ابن قتيبة موعظة طويلة وعظ بها سليمان ابن عبد الملك وأبكاه[٦] .

ومن كبار وعَّاظ العصر وقُصَّاصه الحسن البصرى ، وفيه يقول الجاحظ : « أما الخطب (الدينية) فإنا لا نعرف أحداً يتقدم الحسن البصرىّ فيها[٧] » وممن يأتى بعده فى الوعظ عبد الله بن شداد ، وهو القائل : « أرى داعىَ الموت لا يُقلع وأرى من مضى لا يرجع[٨] » . ومن كبار القُصَّاص والوعَّاظ الفضل بن عيسى الرقاشى ، وكان يسجع فى وعظه[٩] ، ويقول الجاحظ إنه « كان من أخطب الناس وكان متكلماً قاصًّا مجيداً[١٠] » وهو الذى يقول فى قصصه : « سَلِ الأرض فقُل من شَقَّ أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً[١١] » . ومن أشهر الوعاظ وأنبههم واصل[١٢] بن عطاء رأس المعتزلة ، وكان أغزر خطباء عصره

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٩٨ وما بعدها .
(٢) البيان والتبيين ١/ ٣١٧ .
(٣) نفس المصدر ١/ ٣٣٩ — ٣٤٠ .
(٤) البيان والتبيين ٣/ ٢٧٤ .
(٥) نفس المصدر ٣/ ١٦٤ والطمر : الثوب البالى .
(٦) عيون الأخبار ٢/ ٣٤١ .
(٧) البيان والتبيين ١/ ٣٥٤ .
(٨) نفس المصدر ٢/ ١١٣ .
(٩) البيان والتبيين ١/ ٢٩٠ .
(١٠) البيان والتبيين ١/ ٣٠٦ .
(١١) نفس المصدر ١/ ٣٠٨ .
(١٢) انظر فى ترجمة واصل الملل والنحل للشهرستانى ص ٣١ وما بعدها وأنساب السمعانى وابن خلكان ولسان الميزان ٦/ ٢١٤ .

وأبلغهم وأعجبهم وأبينهم ، ويُرْوَى أنه حضر يوماً مجلس عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فى إمارته على العراق (١٢٦ — ١٢٩ هـ) وحضره معه خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى الرقاشى ، وتبارى الأربعة بين يديه فى الخطابة ، ففضلهم بخطبته المشهورة التى جانب فيها الراء ، إذ كان يلثغ فيها لَثْغاً فاحشاً ، ونوّه بذلك بشار بن بُرْد طويلا ، قبل أن يفسد رأى واصل فيه ، على شاكلة قوله[1] :

أبا حُذَيْفَةَ قد أوتيتَ مُعْجِبَةً ... فى خطبةٍ بدَهتْ من غير تقدير

وقوله :

تكلفوا القولَ والأقوامُ قد حَفَلُوا ... وحبَّروا خُطَباً ناهيكَ من خُطَب
فقام مُرْتجلا تَغْلى بَداهتُـه ... كمِرْجَلِ القَيْن لما حُفَّ باللَّهبِ[2]
وجانبَ الراء لم يَشْعر بها أحـدٌ ... قبل التَّصفّح والإغراقِ فى الطلبِ

ولا نستطيع أن نزعم كما زعم بشار أن واصلا ألقى هذه الخطبة على البديهة فإن من يرجع إليها يحسّ أثر الرّوية والتحضير وأنه تأتّى لها فى أناة حتى اتسقت فى نسقها البديع ، وهى من خير مواعظ العصر وأجملها وأبرعها ، وقد استهلّها بتحميد وتمجيد أطنب فيهما إطناباً لا نعرفه لأحد من رُصَفائه ، على هذا النمط[3] :

« الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقى بلا نهاية ، الذى عَلا فى دنوّه ، ودَنا فى علوّه ، فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ، ولا يَئُوده[4] حفظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثال سبق ، بل أنشأه ابتداعاً ، وعدّله اصطناعاً ، فأحسن كلَّ شىء خلقه ، وتمّم مشيئته ، وأوضح حكمته ، فدلّ على ألوهيته ، فسبحانه لا معقّب[5] لحكمه ولا دافع لقضائه ، تواضعَ كل شىء لعظمته ، وذلّ كل شىء لسلطانه ، ووسع كلَّ شىء فضلُه ، لا يَعْزُب عنه مثقال حبّة وهو السميع العليم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلهاً تقدّستْ أسماؤه ، وعظُمت آلاؤه ، وعلا عن صفات

---

(١) انظر فى هذا البيت وما يليه البيان والتبيين ١/٢٤ .
(٢) القين : الحداد .
(٣) انظر فى هذه الخطبة الحلقة الثانية من الرسائل النادرة لعبد السلام هرون وجمهرة خطب العرب لأحمد زكى صفوت ٢/٤٨٢ .
(٤) يئوده : يثقله .
(٥) لا معقب : لا راد .

كل مخلوق ، وتنزّه عن شبيه كل مصنوع ، فلا تبلغه الأوهام ، ولا تُحيط به العقول والأفهام ، يُعْصَى فيَحْلُم ، ويُدْعى فيسمع ، ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » .

وواضح أن واصلا يستظهر فى هذا التحميد والتمجيد آى القرآن الكريم فى وصف عظمة الله وجلاله ، حتى ليستعين بلفظها . وأيضاً فإنه يستظهر ما كان يقرّره من نفى التجسيم عن الله ، وأنه ليس كمثله شىء من مخلوقاته . وقد مضى يصلى على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مطيلا فى صلاته كما أطال فى حمده . وبقَبَس من صنيعه أخذ الكُتّاب من أمثال عبد الحميد يطيلون فى تحميداتهم وصلاتهم على الرسول . ويأخذ بعد ذلك فى الحث على التقوى والعمل الصالح والتنفير من الدنيا ومتاعها الزائل ، يقول :

« أوصيكم عبادَ الله مع نفسى بتقوى الله والعمل بطاعته والمجانبة لمعصيته ، وأحضُّكم على ما يُدْنيكم منه ويُزْلفكم لديه ، فإن تقوى الله أفضلُ زادٍ وأحسن عاقبة فى معاد ، ولا تُلهينَّكم الحياة الدنيا بزينتها وخُدَعها وفواتن لذاتها وشهوات آمالها ، فإنها متاع قليل ومدة إلى حين ، وكل شىء فيها يزول . فكم عانيتم من أعاجيبها وكم نَصبتْ لكم من حبائلها ، وأهلكتْ من جنَح إليها واعتمد عليها ، أذاقتهم حلواً ، ومزجت لهم سمّاً » .

وواصل فى هذه الفقرة يردّد ما كان يَجْرى على لسان الوعاظ من الدعوة إلى تقوى الله حق تقواه ، ويحذر من الدنيا وبَرْقها الخلّب وما يُطْوَى فيها من نعيم لا يلبث أن يزول ، وإنها لتحت أعينهم تمدُّ لهم فى غوايات الشهوات ، والعاقل من ازورَّ عنها وكبح جماح نفسه وردّها عن أهوائها ، فالموت بالمرصاد وعمّا قليل لا يكون للمرء سوى ما قدّم من عمل صالح ، فليتزودْ كلٌّ لمعاده قبل فوات الفرصة وحلول الأجل . ويسترسل على هدى القرآن الكريم يتحدث عن الدول والأمم الغابرة ، متخذاً من ذلك العبرة يقول :

« أين الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيّدوا المصانع ، وأوثقوا الأبواب ، وكاثفوا الحُجّاب ، وأعدّوا الجياد ، وملكوا البلاد ، واستخدموا التلاد ، قبضتهم بمَحْمِلها [1]

(١) المحمل : الشقان على البعير يحمل فيهما شخصان . والمعنى احتوت عليهم .

وطحنتهم بكَلْكلها[١] ، وعضّتهم بأنيابها ، وعاضتْهم من السَّعة ضيقاً ، ومن العزة ذُلا ، ومن الحياة فناء ، فسكنوا اللّحود ، وأكلهم الدود ، وأصبحوا لا تُرَى إلا مساكنهم ، ولا تجد إلا معالمهم ، ولا تُحِسُّ منهم من أحد ، ولا تسمع لهم نَبْساً » .

وهذا الشطر من موعظة واصل يصور لنا كيف كان القصاص يتحدثون طويلاً عن الأمم الداثرة والدول الزائلة حديثاً أطالوا فيه مستوعبين لقَصص الرسل وشعوبهم وخاصة تلك التى عصتهم ، وما صبّ الله عليها من عذابه مما دفعهم دفعاً إلى جَلْب ما ورثه أهل الديانات السماوية من أخبار عن الأنبياء ، يقصدون بذلك إلى الموعظة الحسنة . ويعود واصل إلى الوصية بالتقوى والانتفاع بالقرآن وما به من أحسن القصص وأبلغ المواعظ ، وكفى به واعظاً هادياً .

ويُشيد الجاحظ ببلاغة واصل وأنه كان أحد الأعاجيب فى بلاغته ، إذ كان فاحش اللُّثْغة فى الراء ، فخلَّص كلامه منها تخليصاً ، بحيث لم يكن أحد يفطن لذلك لبيانه الرائع ، يقول : إنه كان داعية ورئيس نحلة . وعرف أن مخرج لثغته شنيع وأنه يقارع أرباب النحل وزعماء الملل وأن لابد له من حسن البيان وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة ، ومن أجل الحاجة إلى ذلك « رام إسقاط الراء من كلامه وإخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ، ويناضله ويساجله ، ويتأتّى لستره والراحة من هُجْنته حتى انتظم له ماحاول واتّسق له ما أمّل . ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلا ولطرافته معلماً لما استجزنا الإقرار به والتأكيد له . ولست أعنى خطبه المحفوظة ورسائله المخلّدة ، لأن ذلك يحتمل الصنعة ، وإنما عنيت محاجّة الخصوم ومناقلة[٢] الأكفاء ومفاوضة الإخوان .. وذكر ذلك أبو الطُّروق الضَّبّىُّ فقال

عليمٌ بإبدال الحروف وقامعٌ لكل خطيبٍ يغلب الحقَّ باطلُه[٣] »

ولا شك فى أن عدول واصل عن الكلمات ذوات الراء فى جميع محاوراته آية بينة على تمام آلته فى البلاغة وإحكام صنعته . وكان رأساً فى الوعظ والاعتزال

---

(١) الكلكل : الصدر .

(٢) مناقلة : مدافعة .

(٣) البيان والتبيين ١ / ١٤ وما بعدها .

معاً ، وخرَّج كثيرين على مذهبه ، طافوا البلاد يعظون الناس ويدعون إلى مقالته ، وكان من أهم ما يدعو إليه حرية الإرادة ، وأن الفاسق فى منزلة بين منزلتى المؤمن والكافر . والطريف أننا نجد صفوان الأنصارى يصف أتباعه فيقول[1] :

له خلفَ شَعْب الصِّين فى كل ثُغْرةٍ ... إلى سوسها الأقصى وخلف البرابرِ[2]
رجالٌ دعاةٌ لا يَفُلُّ عـزيمهُمْ ... تهكُّمُ جبَّارٍ ولا كيدُ ماكرِ
وأوتادُ أرضِ الله فى كل بلـدةٍ ... وموضعُ فُتْياها وعلم التشاجر[3]
وما كان سحبانٌ يشقُّ غبارَهُم ... ولا الشُّدْقُ من حَيَّىْ هلالِ بن عامرِ[4]

وهو لا ينوِّه بوعظهم فحسب ، بل ينوه أيضاً بقدرتهم على الجدل والإقناع وتقرير الأدلة فى عقول الناس . ويمضى فيصور براعة واصل فى هذا العلم الجديد ، علم التشاجر ، وكيف كان يقتدر على إيراد الحجج ودفع الشُّبَه عند خصومه من أرباب الملل والنحل ، مستطرداً من ذلك إلى وصف تقواه وتقوى أتباعه ، يقول :

تلقَّب بالغَزَّال واحدُ عصره ... فَمْن للیتامى والقَبيل المُكاثرِ[5]
ومَنْ لحَرُورِىٍّ وآخرَ رافضٍ ... وآخرَ مُرْجِئٍ وآخر جائرِ[6]
وأمرٍ بمعروفٍ وإنكار منكَرٍ ... وتحصين دين الله من كل كافرِ
يُصيبون فَصْلَ القول فى كل موطنٍ ... كما طبَّقَتْ فى العظم مُدْيَةُ جازرِ
وسيماهمُ معـروفةٌ فى وجوههم ... وفى المشى حُجَّاجاً وفوق الأباعرِ
وفى ركعةٍ تأتى على الليل كلِّـهِ ... وظاهِرِ قولٍ فى مثالِ الضمائرِ

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٥ .
(٢) السوس الأقصى : كورة بالمغرب كانت حاضرتها طنجة .
(٣) علم التشاجر : يريد به علم الجدال فى العقيدة أو علم الكلام .
(٤) الشدق : البلغاء .
(٥) خير الأقوال فى تلقيب واصل بالغزال أنه كان يجلس فى سوق الغزالين ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن . انظر المبرد ص ٥٤٦ .
(٦) الحرورية : الخوارج

ويهمنا ما وقف عنده صفوان والجاحظ بعده من محاجّة واصل لخصومه من أرباب الملل: من الحَرُورِيَّة ورافضة الشيعة والمرجئة، فقد انبثقت من الوعظ شعبة من الجدل فى العقيدة، هيأت لظهور علم التشاجر كما يقول صفوان أو علم الكلام كما اصطلح المتأخرون ، فظهر القدرية بزعامة الحسن البصرى ، وظهر المرجئة بزعامة غيلان الدمشقى وغيره من دعاة هذا المذهب فى العراق وخراسان . وفى كل مكان نسمع عن مجادلات أصحاب هذه الفرق بعضهم مع بعض ، ومع الخوارج والشيعة وبعض خلفاء بنى أمية[1] . واحتدمت هذه المجادلات احتداماً شديداً، وقد احتفظت الكتب ببقايا منها تدل دلالة بينة على أنها شحذت العقول كما شحذت الألسنة ، ومن خير ما يصورها محاورة واصل بن عطاء مع عمرو ابن عبيد بمجلس الحسن البصرى فى مرتكب الكبيرة، وكان الحسن يراه مؤمناً فاسقا ، ويراه الخوارج كافراً، وتراه المرجئة مؤمناً غير فاسق ولا كافر، لأنهم كما قدمنا كانوا يفصلون الإيمان عن العمل . ورأى واصل أن مرتكب الكبيرة فى منزلة وسطى بين منزلتى المؤمن والكافر ، فهو ليس مؤمناً ولا كافراً . وكان عمرو بن عُبَيْد من تلاميذ الحسن البصرى، فجمع بينه وبين واصل ليناظره فى رأيه . ويقص علينا المرتضى هذه المناظرة[2] ، ويقدم لها بأن واصلا أقبل ومعه جماعة من أصحابه إلى حلقة الحسن وفيها عمرو بن عُبَيد، فحاوره فى رأيه ، وردّ عليه واصل ردًّا مفحماً مستخدماً بعض آى الذكر الحكيم، شافعاً ذلك بقياس منطقى دقيق . واقتنع عمرو فترك مقالة الحسن إلى مقالة واصل ، وأصبح بعد ذلك من رءوس المعتزلة .

والحق أن واصل بن عطاء يُعَدُّ رمزاً لكل ما أصاب عقل الوعّاظ وأصحاب المقالات فى هذا العصر من دقة لا فى مناظراته ومحاوراته فحسب ، بل أيضاً فى آرائه ، فإن فكرة المنزلة بين المنزلتين التى وضع فيها مرتكبى الكبائر فكرة لا يؤْتَاها إلا من استبصر المعانى وعرف حدودها ومقاديرها ومداخلها ولطائفها ، وكان واصل يجمع إلى ذلك قدرة واسعة فى الجدل والظفر بخصومه ، وهو ظفر

---

(١) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » (طبع دار المعارف) ص ٧٩ .

(٢) أمالى المرتضى ١/١٦٥ .

لا يأتى عفواً، وإنما يأتى من تصفُّح الأدلة ومعرفة صحيحها من سقيمها وجيدها من زائفها .

فإذا قلنا إن الخطابة العربية تطورت تطوراً واسعاً بتأثير عقول هؤلاء المتكلمين لم نكن مغالين ، إذ دُعمت فيها الأدلة ودقَّت المعانى ، واستتمت شعباً كثيرة من خفياتها ودقائقها . وليس هذا فحسب ، فإن هؤلاء الوعاظ المتكلمين وازنوا بين خطابتهم والجماهير التى كانت تستمع إليهم ، وكانت أخلاطاً من خاصة وعامة ومن عرب وموال ، ومن ثَمَّ فتحوا الأبواب واسعة للأسلوب المولَّد الجديد ، وهو أسلوب لا يرتفع عن الموالى وفئات العامة بما قد يكون فيه من لفظ غريب ، ولا يهبط عن العرب وفئات الخاصة بما فيه من لفظ مبتذل ، أسلوب وسط ، عماده الفصاحة والوضوح .

ولم يكونوا يخطبون غالباً وقوفاً شأن خطباء السياسة والمحافل ، إنما كانوا يخطبون جلوساً ، ومن حولهم تلاميذهم ومستمعوهم فى حلقات ، وهم من هذه الناحية يُعَدّون محاضرين أكثر منهم خطباء بالمعنى الدقيق ، وهيأ لهم ذلك شيئاً من التروِّى والتمهل كان له أثره فى روعة الأداء ، حتى لنرى فريقاً منهم يعمد إلى السجع فى وعظه مثل أسرة الرقاشيين[1] ، وكان بينها غير متكلم مثل الفضل ابن عيسى الرقاشى . ولكن هذا ليس الأسلوب الذى شاع فى تلك البيئة ، إنما شاع أسلوب آخر كان يقوم على الازدواج والترادف ، وهو واضح فى خطبة واصل التى مرَّت بنا ، وفى خطابة الحسن البصرى وغَيْلان[2] الدمشقى ، وإنما ألجأهم إليه ضيق معانى الوعظ ، فاضطروا إلى الترادف وترداد الكلام . ومن غير شك هم الذين أعدُّوا لهذا الأسلوب الذى نراه ينتقل منهم إلى عبد الحميد ومَن تلاه من كتاب العصر العباسى أمثال الجاحظ . ولا أغلو إذا قلت إنهم أعدوا لشيوع لون الطباق فى كتابات العباسيين ، فقد جعلهم حديثهم عن الطاعة والعصيان والحياة والموت والجنة والنار يصوغون خطابتهم على المطابقة والمقابلة بين المعانى .

---

(١) انظر فى هذه الأسرة البيان والتبيين ١/٣٠٦ وما بعدها .

(٢) انظر فى مواعظه عيون الأخبار ٢/٢٤٥ .

وليس هذا كل ما أهدوه إلى النثر العربى ، فإنهم أهدَوْا إليه أيضاً كثيراً من الوصايا البلاغية التى يموج بها كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، إذ تحولوا يعلّمون شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون خطابتهم سواء من حيث إشاراتهم أم من حيث منطقهم أم من حيث تنقيح معانيهم أم مُن حيث تصفية ألفاظهم ، وكيف يلائمون بين اللفظ والمعنى وبين كلامهم ومستمعيهم وطبقاتهم ، ومتى يُستَحَبُّ الإيجاز ومتى يستحب الإطناب ، وكيف أن المعوّل دائماً على وضوح الدلالة حتى يَصْنع الكلام فى القلوب صنيعَ الغيث فى التربة الكريمة . وبذلك هيأوا لظهور قواعد البلاغة العربية ، ولعل من الطريف أن أقدم النصوص المتصلة بماهيتها تضاف إلى أحد متكلميهم ووعّاظهم ، فقد روى الجاحظ أن سائلاً سأل عمرو بن عُبَيْد ما البلاغة ؟ فأجاب[1] :

« ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار ، وما بصّرك مواقعَ رشدك وعواقب غيّك ، قال السائل : ليس هذا أريد ، قال عمرو : فكأنك إنما تريد تحبير اللفظ فى حسن إفهام ؟ قال : نعم ، قال : إنك إن أردت تقرير حجة الله فى عقول المكلّفين وتخفيف المئونة على المستمعين وتزيينَ تلك المعانى فى قلوب المريدين بالألفاظ الحسنة فى الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة فى سرعة استجابتهم ونَفْى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فَصْلَ الخطاب ، واستحققت على الله جزيل الثواب » .

وعلى هذا النحو كان تلاميذهم لا يزالون يدفعونهم إلى الحديث عن آلات البلاغة ، وكيف يحرزون لأنفسهم التفوق فى الخطابة وفى المحاورة والمناظرة ، ويُؤْثَرُ عن خالد بن صفوان أنه كان يقول : « اعلم — رحمك الله — أن البلاغة ليست بخفة اللسان وكثرة الهذيان ، ولكنها بإصابة المعنى والقصد إلى الحجة »[2] وكان شَبيب بن شَيبة يقول : « الناس موكّلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه ، وأنا موكّل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه ، وحظُّ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت[3] » . ولم يكونوا يتفقدون

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٤ وانظر العقد الفريد ٢/٢٦٠ وزهر الآداب ١/٩٣ .

(٢) العقد الفريد ٢/٢٦١ .

(٣) البيان والتبيين ١/١١٢ .

مطالع كلامهم وخواتمه فحسب ، بل كانوا يتفقدون أيضاً ثناياه ومقاطعه . ونحن نتوقف قليلا عند الحسن البصرى وخطابته ، إذ يُعَدُّ أخطبَ خطبائهم وأبلغ بلغائهم .

الحسن[1] البَصْرى

وُلد بالمدينة سنة إحدى وعشرين للهجرة لأب أعجمى يسمى يساراً من سَبْىِ ميسان بجوار البصرة استرقه رجل من الأنصار ، ثم أعتقه ، فكان ولاؤه فيهم ، وكانت أمه خيرة مولاة لأم سلمة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأُعتقت هى الأخرى . وكان له أخ يسمى سعيداً . وقد عاشت هذه الأسرة فى وادى القُرَى ، وترددت على المدينة . ولم تتصل أمه بأم سلمة وحدها من أزواج الرسول ، فقد كانت تختلف إليهن جميعاً ، ويختلف معها الحسن ، فاقتبسا معاً من نورهن ونور الرسالة النبوية ، وأعان أمه على هذا الاقتباس أنها استطاعت أن تحسن العربية ، فكانت ترْوى أحاديث عن أم سلمة وتدمجها بوعظ كثير ، مما كان له أثره العميق فى نفس ابنيها الحسن وسعيد . وأخذ الحسن منذ صباه يختلف إلى المسجد الجامع ، وفى أثناء ذلك حفظ القرآن وتعلم الكتابة ، وأخذ ينهل مما فى المدينة من فيض الرسالة .

ولا نتقدم إلى خلافة علىّ حتى نجد أسرته تنزح إلى وطنه ، فينزل البصرة ، ونرى الحسن يجنح عن المشاركة فى الأحداث القائمة ، وهو مذهب اتبعه طول حياته أن لا يشارك فى الأحداث والفتن ، وكأنما وهب نفسه للدين بمعناه الدقيق ، فهو يعيش لمدارسة القرآن الكريم ورواية الحديث محاولا الوقوف على جوانب التشريع الإسلامى . ونراه يخرج بعد اجتماع الأمة على معاوية مع الجيوش الغازية فى الشرق ، ويعمل كاتباً لبعض الولاة فى خراسان ، ويظل هناك نحو عشر

---

(١) انظر فى ترجمة الحسن طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١١٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان والمعارف لابن قتيبة ص ٢٢٥ وتهذيب التهذيب والملل والنحل ص ٣٢ وأمالى المرتضى ١٥٢/١ والكامل للمبرد والبيان والتبيين والعقد الفريد وعيون الأخبار انظر (فهارس تلك الكتب) والحسن البصرى لابن الجوزى والحسن البصرى لإحسان عباس (طبع دار الفكر العربى) .

سنوات يعود بعدها إلى البصرة ويظل بها حتى وفاته سنة ١١٠ للهجرة ويخلص للدرس الدينى ، ولا يترك نبعاً من ينابيعه دون أن يرتشفه ارتشافاً ، وسرعان ما يصبح واعظاً كبيراً ويقبل عليه شباب البصرة إقبالا منقطع النظير . ولا نصل إلى عصر الحجاج حتى يصبح أكبر واعظ فى مصره إذ كان لا يجارَى فى بلاغته وبيانه .

ويُكبِّره عصره كما تكبره العصور التالية لزهده الذى لم يكن يتعمَّل فيه ولا يتكلف ، زهد بناه على آداب الإسلام ، إذ استقاه من مناهله الحقيقية فى المدينة دار النبوة ، ومن ثَمَّ أخذت الفرق الدينية تتنازعه ، حتى تسوِّغ آراءها فى عقول الناس ، فكل فرقة تَنْسب إليه من عقائدها ما يجعله ينتظم بين رُوَّادها الأولين ، فالجَبْرية يقولون إنه كان ينفى حرية الإرادة ويذهب إلى أن كل شىء بقضاء من الله ، ويقول القَدَرية إنه من القائلين بحرية الإرادة وأن الإنسان حر مختار فى أفعاله ، ويجعله الصوفية إمامهم .

ونستطيع أن نستخلص من النصوص المتضاربة أنه كان قَدَريًّا ، إذ كان يقول مَنْ زعم أن المعاصى من الله جاء يوم القيامة مسودًّا وجهه ، ولو كان من الجبرية ما نوّه به الجاحظ المعتزلى هذا التنويه العريض الذى نلقاه دائماً كلما ذكره فى صفحات كتابه البيان والتبيين . ويزعم صاحب « المنية والأمل » أن الحجاج كتب إليه يسأله عن رأيه فى القدر ، فكتب إليه رسالة ضمَّنها ما كان يراه من حرية الإرادة والعدل على الله[1] ، وتلتقى بهذه الرسالة فى نفس المعنى رسالة يقال إنه أرسل بها إلى عبد الملك[2] .

والذى لا شك فيه أن الحسن كان أحد أئمة الزهاد فى عصره وأنه كان يدعو إلى الزهد فى الحياة الدنيا دعوة واسعة ، ولكنه لم يكن متصوفاً ، فالتصوف شىء والزهد شىء آخر ، حقًّا كل متصوف زاهد ، ولكن ليس كل زاهد متصوفاً ، ومعروف أن التصوف إنما نشأ بعد عصره . وقد صوّر إحسان عباس شخصيته الزاهدة تصويراً دقيقاً مبيناً كيف صرف نفسه عن متع الحياة وكيف تعمقته تجربة الزهد وكيف مضى يدعو إليه فى مواعظه دعوة لا تفتر . وكانت

---

(١) المنية والأمل لابن المرتضى (طبع حيدر آباد) ص ١٢ .

(٢) انظر مصورة هذه الرسالة فى دار الكتب المصرية برقم ٢٢٢١ أدب .

خلافة عمر بن عبد العزيز الزاهد له عيداً، فوفد عليه واعظاً وراسله ، وقَبِلَ أن يتولى القضاء إلى فترة فى عهده . وكان بارع الفصاحة ، حتى ليصفه بعض من سمعه من الأعراب بأنه «عربى محكّك[١] » ويُؤْثَرُ عن الحجاج أنه كان يقول : « أخطبُ الناس صاحب العمامة السوداء بين أخْصاص[٢] البصرة إذا شاء خطب وإذا شاء سكت[٣] » وهو إنما يَعْنيه ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : « لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج[٤] ». وكان يجمع إلى فصاحته حسًّا لغويًّا دقيقاً ، ومما يصور ذلك ما يُرْوَى عن رجل من بنى مجاشع قال : « جاء الحسن فى دم كان فينا فخطب ، فأجابه رجل بأن قال : قد تركت ذلك لله ولوجوهكم ، فقال الحسن : لا تقل هكذا، بل قُلْ : لله ثم لوجوهكم ، وآجرك الله[٥] » .

وتموج بعظاته كتب البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد كما تموج بها ترجمته فى الكتب المختلفة وكتب المتصوفة مثل اللمع للسراج وحلية الأولياء لأبى نعيم ، وقد نوّه به الغزالى فى الإحياء مراراً . وهو فى مواعظه يستمد من القرآن الكريم وهدى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الورعين ، وخاصة عمر بن الخطاب ، فإنه يروى عنه كثيراً من أقواله وعظاته[٦] .

وهو فى وعظه ينفّر دائماً من الدنيا ومتاعها الزائل ، مذكّراً باليوم الآخر وما ينتظر العصاة فيه من العقاب الزاجر حاثًّا على التقوى والعمل الصالح والتأسى بالرسول وصحابته الذين رفضوا الدنيا وطلبوا الآخرة ، فكانوا كالكَرْمة التى حسن ورقها وطاب ثمرها . ومن مواعظه التى رواها له الجاحظ قوله[٧] :

« يا بنَ آدم بِعْ دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . يا بن آدم إذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم فى الشر فلا تغبطهم به . الثَّواء هاهنا قليل والبقاء هناك طويل . أما إنه والله لا أمةَ بعد أمتكم ولا نبيَّ بعد نبيكم ولا كتابَ بعد كتابكم. أنتم تسوقون الناسَ

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٠٥ .
(٢) الخص : البيت من قصب ، وكان فى البصرة طائفة من هذه البيوت كان يسكن فيها الحسن زهداً وورعاً .
(٣) البيان والتبيين ١/٣٩٨ ، ٢/٢٨٦ .
(٤) نفس المصدر ١/١٦٣ .
(٥) نفس المصدر ١/٢٦١ .
(٦) البيان والتبيين ٣/١٣٧ وما بعدها .
(٧) نفس المصدر ٣/١٣٢ وانظر عيون الأخبار ٢/٣٤٤ .

والساعةُ تسوقكم، وإنما يُنْتَظرُ بأولكم أن يلحق آخركم . من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً رائحاً [١] لم يضع لَبِنةً على لبنة ولا قصبة على قصبة . . (لقد كان لكم فى رسول الله أُسْوَةٌ حسنة). يا ابن آدمَ طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قَبْرُك، واعلم أنك لم تزل فى هدم عمرك مذ سقطتَ من بطن أمك ، فرحم الله رجلا نظر فتفكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، وأبصر فصبرَ .. يابن آدم اذكرْ قوله: (وكلَّ إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حَسيباً) عدلَ ، والله ، عليك مَنْ جعلك حسيب نفسك . خذوا صفاء الدنيا وذَرُوا كدَرها ، دعوا ما يَريبكم إلى ما لا يريبكم . لقد صحبت أقواماً [٢] ما كانت صحبتهم إلا قُرَّةَ العين وجِلاء الصدر ، ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفقَ من أن تُرَدَّ عليهم منكم من سيئاتكم أن تعذَّبوا عليها ، وكانوا فيما أحلَّ الله لهم من الدنيا أزهدَ منكم فيما حرَّم عليكم منها . . لو تكاشفتم ما تدافنتم [٣] ، تهاديتم الأطباق ولم تتهادوا النصائح ، قال ابن الخطاب : رحم الله امرأ أهدى إلينا مساوِينَا . أعِدُّوا الجواب فإنكم مسئولون . . يابن آدم ليس الإيمان بالتحلِّى ولا بالتمنى ، ولكنه ما وَقَرَ فى القلوب وصدَّقته الأعمال» .

وواضح كيف كان يمزج عظته بآى الذكر الحكيم مستعيراً من أحاديث الرسول ما يضيء به كلامه من مثل قوله : « دعوا ما يَريبكم إلى ما لا يريبكم » فى الحديث النبوى : « دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبك » واستعار قول الرسول : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » واستشهد بكلمة لعمر . واستشهاده بآيات القرآن كثير ، تارة يأتى بها فى تضاعيف كلامه ، وتارة يتلو الآية ثم يعقب عليها بعظته ، من ذلك أنه تلا يوماً قوله تعالى : (إنا عرضنا الأمانةَ على السموات والأرض والجبال فأبَيْنَ أن يحملْنها وأشفقْنَ منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا) ثم عقَّب عليها بقوله [٤] :

---

(١) يريد أنه كان يغدو ويروح فى كسب عيشه الضرورى .

(٢) يريد صحابة الرسول .

(٣) يريد لو تكشفت عيوب بعضكم لبعض لاستثقلتم المشى فى الجنائز .

(٤) أمالى المرتضى ١/١٥٤ .

« إن قوماً غدَوْا فى المطارف[١] العتاق والعمائم الرقاق يطلبون الإمارات ويضيّعون الأمانات ، يتعرضون للبلاء وهم منه فى عافية ، حتى إذا أخافوا مَن فوقهم من أهل العفة وظلموا من تحتهم من أهل الذمّة أهزلوا دينهم وأسمنوا بَراذينهم[٢] ووسعوا دورهم وضيّقوا قبورهم . ألم ترهم قد جدّدوا الثياب وأخلقوا الدين ، يتكىء أحدهم على شماله ، فيأكل من غير ماله .. يدعو بحُلْوٍ بعد حامضٍ وبحارٍّ بعد بارد وبرطبٍ بعد يابس ، حتى إذا أخذته الكظّة[٣] تجشّأ من البَشم[٤] ، ثم قال يا جارية هاتى حاطوماً[٥] يهضم الطعام ، يا أحمق لا والله لن تهضم إلا دينك أين جارك ؟ أين يتيمك ؟ أين مسكينك ؟ أين ما أوصاك الله عزّ وجل به ؟ »

وبمثل هذه العظة كان يحمل على من يطلبون الدنيا والظفر فيها بحكم الناس ، حتى إذا حكموهم ظلموهم وعاشوا للذاتهم يلبسون فاخر الثياب ويركبون أنفس الدواب ، ويطعمون طعاماً مختلفة ألوانه ، غير مفكرين فى حقوق الرعية بل طارحين وراء ظهورهم ما أوصى به الدين الحنيف من رعاية الجار واليتيم والمسكين . وكان يعْنُفُ بالأغنياء عنفه بالحكام ، فقد شغلهم متاع الدنيا عن طلب الآخرة حتى أصبحوا كالشجرة التى قلّ ورقها وكثر شوكها ، وإنه ليجزع من انصرافهم إلى نعيم الحياة وسِلعها البائرة وقعودهم عن الآخرة وسلعها الرابحة ، ومن قوله[٦] :

« رحم الله امرأ كسب طيباً ، وأنفق قَصْداً ، وقدّم فضلا ، وجنّوا هذه الفضولَ حيث وجّهها الله ، وضعوها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ويُؤْثرون بالفضل . ألا إن هذا الموت قد أضرّ بالدنيا ، ففضحها ، فلا والله ما وجد ذو لُبٍّ فيها فرحاً ، فإياكم وهذه السبلَ المتفرقة التى جماعها الضلالةُ وميعادها النار . أدركتُ مِنْ صَدْرِ هذه الأمة قوماً كانوا إذا أجنّهم الليل فقيامٌ على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم فى فكاك رقابهم[٧] . . يابن آدم إن كان لا يُغْنيك

---

(١) المطارف : جمع مطرف هو ثوب من خز .
(٢) براذينهم : دوابهم
(٣) الكظة : الشبع .
(٤) البشم : الامتلاء .
(٥) الحاطوم : الهاضوم المهضم .
(٦) البيان والتبيين ٣/١٣٥ .
(٧) يريد تخليصهم رقابهم من شهوات الدنيا أو من جزاء لا يرضونه .

ما يكفيك فليس‌ها هنا شيء يُغْنيك، وإن كان يُغْنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يغنيك » .

ويكرر الحسن دائماً ذكر الموت والآخرة والإعراض عن الدنيا والخوف من الله وما أعدَّ للعصاة من الجحيم والعذاب المقيم ، ويجلِّل الحزن مواعظه، فهو دائماً مهموم لما يفكر فيه من مصيره ولقاء ربه يوم يفوز المحسنون ويخسر المبطلون، فطُوبَى لمن قنع بالكفاف وذكر فى غدوِّه ورواحه المعاد، وأعدَّ عدته ليوم الحساب يوم موقفه بين يدى الله ،وهو لا يدرى أيؤْمَرُ به إلى الجنة أم إلى النار . وإن التفكير فى ذلك حريٌّ أن يملأ نفس المؤمن بالحزن والهم آناء الليل وأطراف النهار .

ولعل فى هذا كله ما يوضح المعانى التى كان يخوض فيها الحسن البصرى ، وقد كان يختار لها كُسْوة حسنة من هذا الأسلوب الذى يشيع فيه الازدواج ، كما يشيع فيه الطباق والتصوير ، وأيضاً فإنه كان يشيع فيه التقسيم من مثل قوله :

« لا تزول قدما ابن آدم حتى يُسأل عن ثلاث : شبابه فيما أبْلاه ، وعمره فيما أفناه ، وماله من أين كسَبه وفيما أنفقه » .

وهو بلا ريب أكبر من ثبّتوا فى هذا العصر ذلك الأسلوبَ المونق الذى تأثَّر به عبد الحميد ومَنْ خلفوه من الكتَّاب إذ كان يقتدر على تصريف الكلم مع السلامة من التكلف والبراءة من التعقيد ، وليس ذلك فحسب بل أيضاً مع تحلية لفظه بالمزاوجات والمقابلات والتشبيهات والاستعارات والتقسيمات الدقيقة .